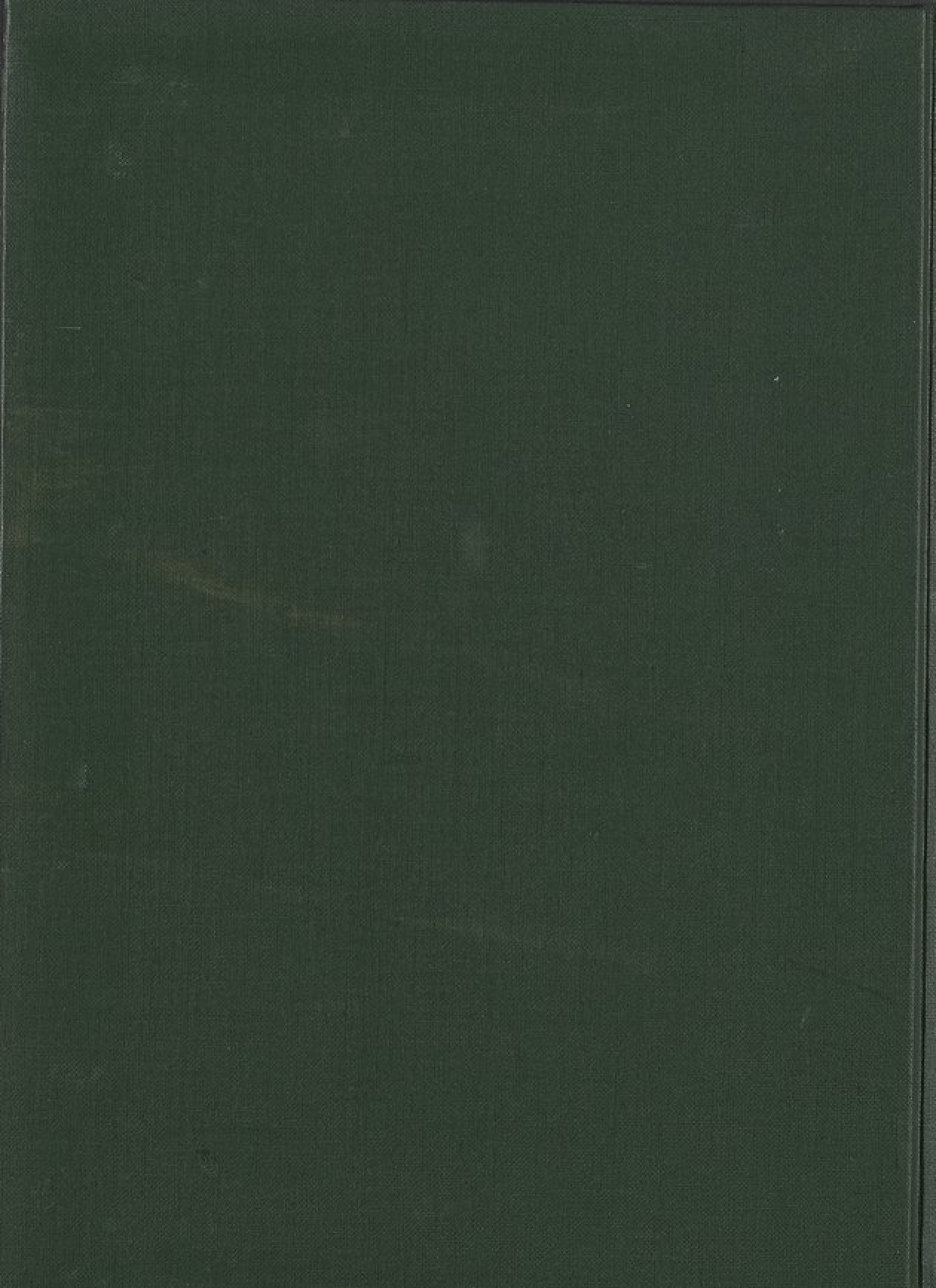
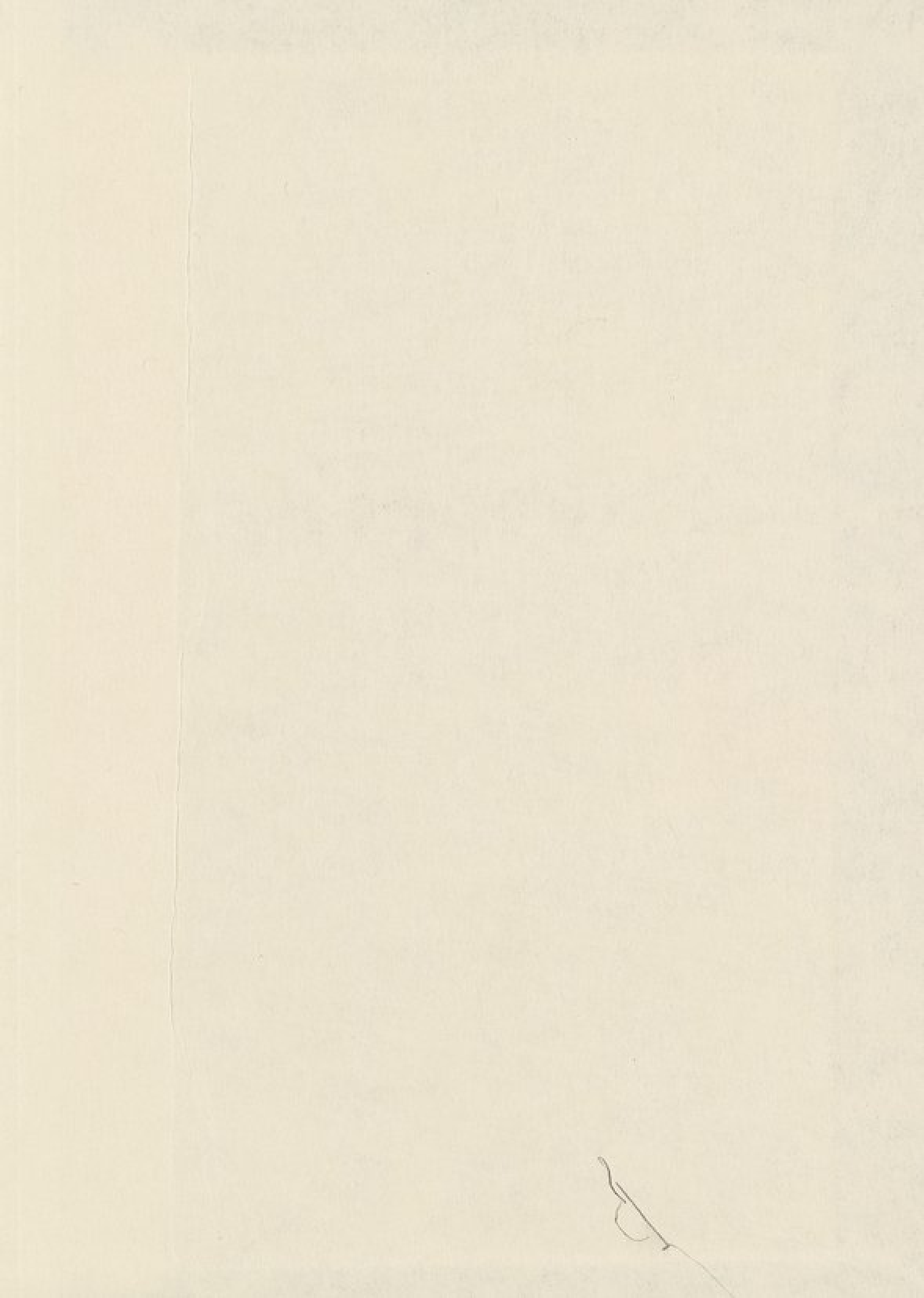
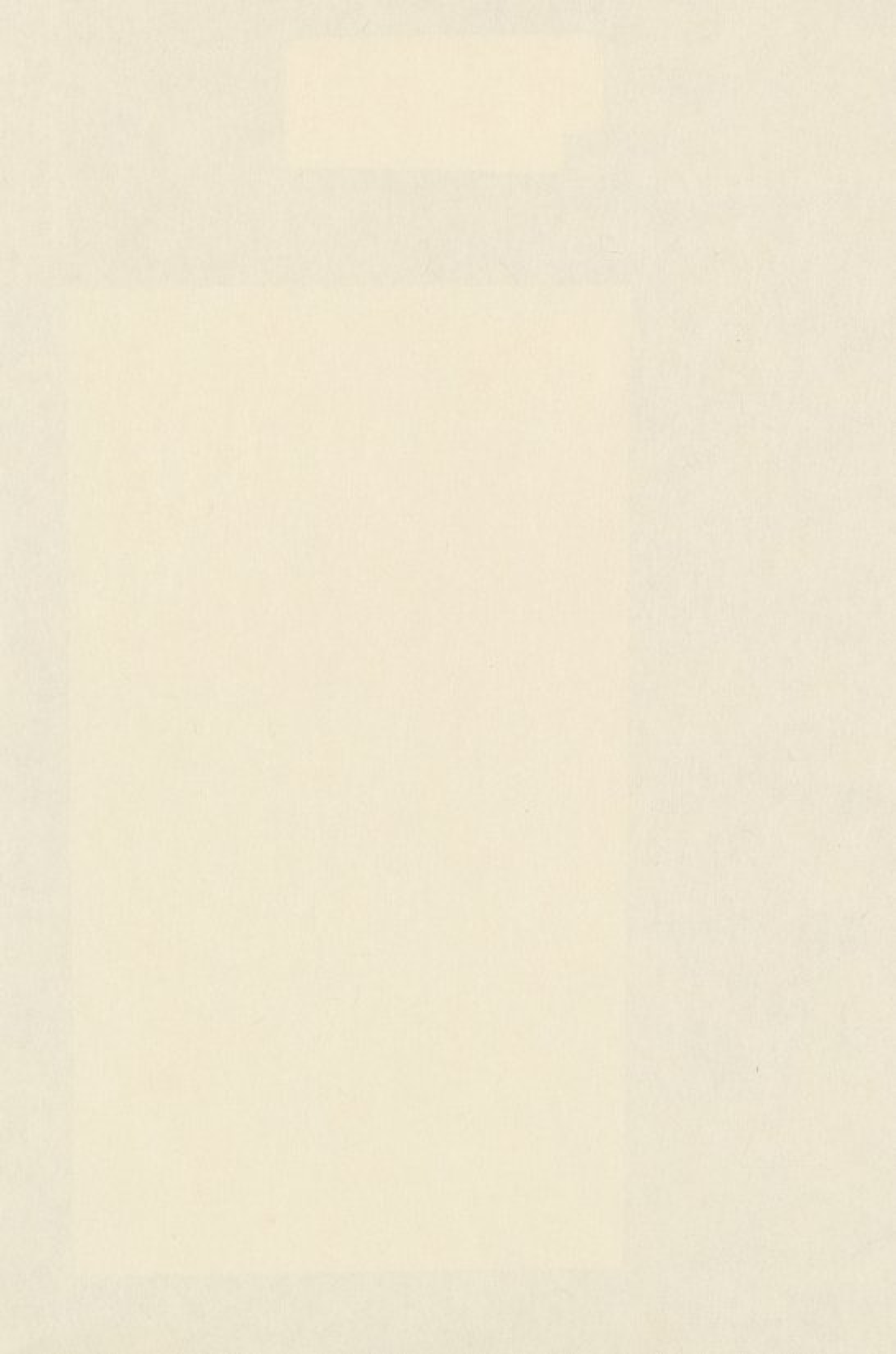
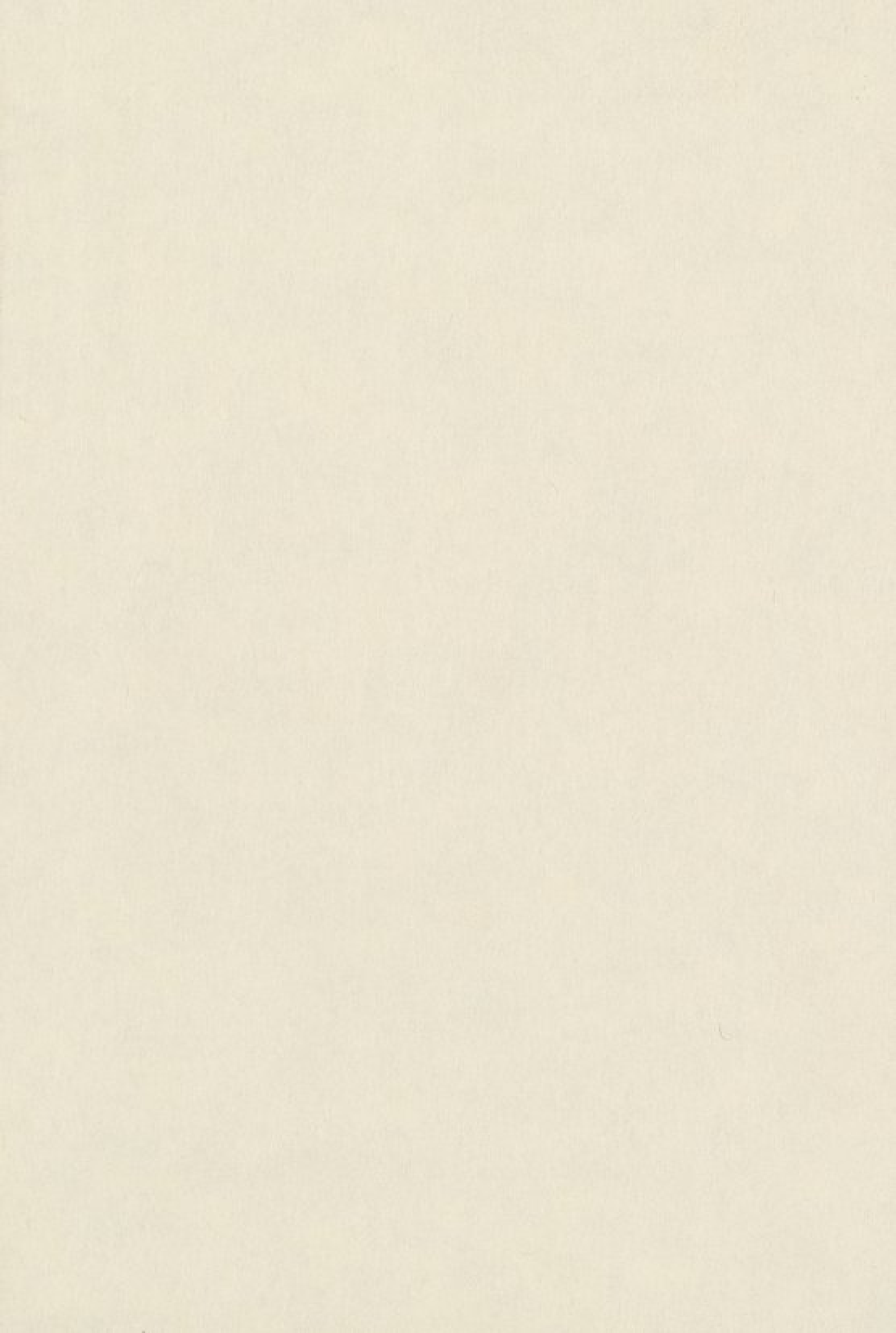





Princeton University Library
32101 065691113







كتاب
شموس الحقائق
في
اثبات الروح والخالق

❊ ان الماديين كالفراشة التي تحوم ❊
❊ حول السراج لتطفئه فتحرق جناحيها ❊
❊ وتنقضي دون ان تقضي وطراً ❊

تاليف
بطرس فرانيلا ارماني
تعريب
الشماس فونيوس خوري

طبع بالمطبعة الوطنية * لصاحبها لطف الله خلاط * طرابلس شام
سنة ١٩١٢م

الديباجـة

الحمد لمن وهب النطق للانسان ، وعلمه البيان ، وقدره عَلَى البرهان حمداً عداد الائه ، ومداد سمائه ·

اما بعد فهذا كتاب لاحد اساطين الحكمة واكابر علماء اليونان المحدثين اثبت فيه بالعلوم العقلية والطبيعية ان في الانسان روحاً او نفساً ناطقة تدبر الجسد وتستنبط العلوم وانها تباين المادة · وان للعالم صانعاً ازلياً ضابط الكل وواضع الشرائع الطبيعية واله الارواح والاجساد ومدبر البرايا ومعتنٍ بكل افرادها واجزائها من اعظم الكواكب الى اصغر ذرات الهباء · ولم يخرج في شيء من الادلة القاطعة والحجج الدامغة عن دائرة العلوم اليقينية · وقد عنيتُ بترجمته الى العربية عَلَى وفق اصله توسعة لافادته وارشاداً لمن ضلوا السبيل بمغالطات المتفلسفين وتخرصات المارقين عن ظلمات الريب الى صبح اليقين · ووقاية لمن لم يقعوا في اشراك الكفرة والمعطلين · وانا اسأل الله ان ينفع بترجمته كما نفع باصله فانه بالاجابة جدير وعلَى كل شيء قدير

الشماس

فونيوس منري خوري

تنبيه : ان مؤلف هذا الكتاب جعله رسائل بين استاذ اسمه فيلوثيوس وتلميذ دعاة الجانيوس ليسهل فهمه عَلَى المطالعين · فان مباحثه من ادق المباحث العقلية والطبيعية وقد تدرج فيه من المبادئ البسيطة الى المطالب السامية تقريباً للافهام كما ترى بمطالعته عَلَى التوالي ·



تقدمة الكتاب

الى

ملاك الكنيسة الانطاكية السيد العلامة الكبير

غريغوريوس الرابع

عربون اخلاص ودليل احترام واقرار بالجميل من الابن الخصيص

مستمد الدعاء

الشماس

فونيوس خوري

المؤلف والمحسن

راى الرجل المثري اليوناني المتقد غيرة عَلَى بني جنسه (اعني به) قسطنطين زابا ما يتهدد الشبيبة اليونانية من الاخطار الناجمة عن انتشار مبادىء الماديين الفاسدة والمفسدة وهاله امرها فرغب في نجاة تلك الشبيبة وطلب الى جمعية نشر العلوم اليونانية ان تسعى في تاليف كتاب تدحض فيه اراء الدهريين ويناسب طلبة المدارس وتبرع بمبلغ وافر من المال لطبعه وبمثله جائزة للمؤلف • فاختارت الجمعية — وهي الخبيرة بمقدرة العلماء — لتاليف هذا الكتاب الفيلسوف الشهير العلامة بطرس ڤرائيلا ارماني سفير الدولة اليونانية في لندن فقام بما عهد اليه احسن قيام ولكنه ابي قبول الجائزة بعد انجاز العمل واوعز الى الجمعية ان تضيفها الى القيمة المخصصة لطبع الكتاب ليوزع مجانا فاجابوه الى ملتمسه شاكرين وادخل الكتاب الى المدارس اليونانية لتعليم الذكور والاناث •

حياة المحسن

هو قسطنطين زابا ثمرة تلك التربة الصالحة ولاية يانيه ظهر الى حيز الوجود سنة ١٨١٢ وترعرع فيها ولما بلغ اشده ترك مسقط راسه وتوجه الى رومانيا حيث كان يقيم ابن عمه انجلو فاشتركا معاً في الزراعة واقتنيا اراضي واسعة وكان النجاح حليفهما لاستقامة مبدإهما وحسن

معاملتهما والوفاق الشديد بينهما الذي ذهب ضرب مثل · الا ان المنية حسدتهما وسعت في تفريق شملهما فاختطفت انجلو في ١٤ حزيران سنة ١٨٦٥ تاركاً ثروته الى ابن عمه قسطنطين الذي قيل عنه انه لم يرَ لذة بشيء اعظم من لذة العمل بانصبابه عليه · وقد بذل كل ماله في سبيل البر والاعمال الخيرية فشيد للفتيات اربع مدارس كبرى واحدة في وطنه وواحدة في ادرنه وواحدة في اثينا وواحدة في القسطنطينية تدشنت في ٥ حزيران سنة ١٨٨٥ ودعيت كل منها زابيون نسبة الى اسمه وتخليداً لجميل ذكره وجليل صنعة · وقد مات هذا الرجل العظيم مملوءا من الايام في مدينة مانتون من اعمال فرنسة في ٢١ ك ٢ سنة ١٨٩١ بعد ان اوصى ان تباع مقتنياته ويدفع بدلها الى الامة اليونانية الا ان الدولة الرومانية طمعت بماله من المقتنيات العظيمة فيها وابت تسليمها فحدث بين الدولتين نفار ونزاع اسفرت نتيجته عن قطع العلائق بينهما ·

اسماء حضرات المشتركين

نسخة — اثينا

٠١ الشماس اغابيوس غلام

ارجنتين

٠١ موسى ابراهيم غريب

٠١ مرتا ابراهيم غريب

١١ جرجي ابراهيم غريب

٠١ سليم ابراهيم غريب

٠١ سلمى ابراهيم غريب

٠٢ اليان جرجي

اسكندرية

١٠ الشماس نيقوديموس صوايا الشويري

انطاكية

٠٣ الشماس الكسندروس جحي

وعن يده

٠١ الشماس انطونيوس ابراهيم خوري

٠٢ رزق الله اسبيريدون

٠١ صديق سابا

٠١ مخائيل مكاريوس

٠١ حبيب باشا

٠١ الشيخ اسحق جحي

٠١ سمعان لاذقاني

٠١ حنا الياس ذيب

٠١ نجيب شقر

نسخة

٠١ الياس جبرا حنه

٠١ مخائيل اوردكجي

٠١ مدرسة الاحد

٠١ ماريا رزق الله خوري

٠١ المعلمة وضحى وهبة الله «بشمزين لبنان»

٠١ الياس نقولا شكري «السويدية»

بروكلن

٠١ الشماس عمانوئيل ابو حطب

وعن يده

٠٢ الخوري باسيليوس خرباوي

بنسلفانيا

٠٥ الخوري جرجس قطوف (ولكسبري

٠١ سليم يوسف «

٠٦ الخوري جرجس النكت (بتسبرغ

البلند

٠٥ الارشمندريت اغناطيوس ابو الروس

٠٢ الشماس اندراوس كرشه

٠٢ الشماس حنانيا كساب «طرابلس»

وعن يدهما

٠٢ ملحم حداد

٠٢ حنا ابراهيم اليان

٠١ الشماس ثيوفانس دموس

نسخة	
١٠	ومنه الى الشماس ايفانيوس زايد
٢٠	حنا داود
١٠	مخائيل وهبه
١٠	عبده المحب الانطاكي
١٠	يوسف خوري معري
١٠	مخائيل خوري شحاده
١٠	يوسف جرجس فرح
١٠	سامي الخوري عبدي
١٠	نيقولا ديمتريو
١٠	اليان ابو طبيخ
١٠	يوسف حداد
١٠	بشاره الخوري حداد
١٠	بطرس حداد
١٠	المتوحد مكسيموس فرح
١٠	« ملاتيوس
	بيت رومين
٢٠	جرجس الحاج
	وعن بده
١٠	يوسف جرجس الشيخاني
١٠	خيرالله سمعان «
١٠	حنا جبرائيل فياض
١٠	حنا ابراهيم المليس
١٠	ابراهيم جبرائيل فياض
١٠	نقولا جرجس الخوري

نسخة	
١٠	نقولا جرجس مخائيل
١٠	امين مخائيل فياض
١٠	ابراهيم جرجس يعقوب
١٠	يعقوب عبدالله حريكة
١٠	ابراهيم غالب النجار
١٠	حبيب الخوري الياس
١٠	عبدالله مخائيل عبود « دده
١٠	نقولا اسحق ابراهيم « قلحات
١٠	جرجس ايوب الخوري « اميون
١٠	عبدالله سعاده «
١٠	حنا عبدالله الخوري «
١٠	مخائيل نقولا الخوري « بدبا
١٠	خليل صليبا « كفرصارون
١٠	داود جرجس الحاج «
١٠	حنا نقولا موسى « فيع
١٠	الشيخ نقولا موسى «
١٠	مخائيل الخوري « حامات
١٠	الشيخ قسطنطين جحي « بشمزين
١٠	جرجس ابراهيم حنا « قلحات
١٠	امين عوده « انفه
	بيروت
٠٥	السيد جراسيموس مسره
٠٣	نجيب ابي رجيلي
١٠	ديمتري غلام

نسخة	
	خالكي « المدرسة اللاهوتية »
١٠	الشماس تريفن غريب
١٠	اغناطيوش حريكه
٠٢	نقولا عبدالله
	ديار بكر
٠٥	السيد ملاتيوس قطيني
٠١	مرجيوس جرجي سمنه
٠١	السيد أباونيس شاكر
	صور
٠٢	السيد ايليا ذيب
	طرابلس « سوريا »
١٠	السيد الكسندروس طحان
	الارشيدياكون غفرئيل كردوس
٠٨	وعن يده
٠١	سليم التاجر « الاسكلة
٠١	المعلم موسى حاماتي «
٠١	الخوري ابراهيم اللاذقاني «
٠١	الياس المبيض
	فرنكلن نيوهمشر
٠٢	مريم ارملة المرحوم قسطنطين بارد
	القسطنطينية
٠٥	الشماس ثاودوسيوس ابو زجيلي
٠٤	ارسانيوس خوري

نسخة	
	اللاذقية
٠٥	السيد ارسانيوس حداد
٠١	الشماس نيفن خوري
	وعن يده
٠١	الشماس مخائيل خلوف
٠١	عيسى داود (مدير المدرسة الروسية
٠١	الخوري برثينيوس لاذقاني
٠١	مخائيل سعاده
٠١	نجيب سعاده
٠١	يوسف صالح
٠١	نخله عطاالله
٠١	الياس مرقص
٠١	اسكندر صوايا
٠١	الياس عفيف
٠١	حبيب كومين
٠١	امين حكيم
٠١	جاد كومين
٠١	الياس شحود
٠١	نعمه صوايا
٠١	جبران سابا
٠١	توفيق مرقس
٠١	نقولا عطاالله
٠١	سليم نزهة
٠١	كامل سعاده

نسخة

٠١ ميشال نصري

٠١ صديق شيبوب

مرسين

٠١ سليم عقده

٠١ جبرائيل مروه

٠١ نعمان خباز

٠١ باسيلي دوماني

المنصورة

٠٥ الخوري يوحنا حزبون

وعن يده

٠١ عبده سكاكيني

٠١ سليم عريس « دمياط

٠١ اسكندر ابراهيم

٠١ حنا حاماتي

٠١ شفيق تادرس

٠١ جبران فانوس

٠١ حبيب دمان

٠١ نقولا كيدوناكي

٠١ راغب مخائيل

٠١ جبران ديمتري

نسخة

٠١ يوسف مخايل

٠١ ابراهيم فام

٠١ فرج اسعد

٠١ نقولا بوتاري « مصر

٠٢ الياس بوتاري (الفشن

٠١ الكسي نقاش

٠١ جرجس سكاكيني

٠١ حبيب قسيس

٠١ نقولا مخاليتوس

٠١ سليم مخائيل

٠١ مجمع السلام للاقباط الارثوذكس

٠١ حبيب سكاكيني

٠١ ديمتري فضول (الاسكندرية

موسكا

٠٥ الارشمندريت انطونيوس مبيض
رئيس الاسطوش الانطاكي

٠٢ اسكندر قسطنطين يارد

مونتيفيدو (اوروكواي اميركا)

٠١ حنا عبدالله حريكه

٠١ مخائيل عبدالله حريكه

بعد طبع الكراس السابق وزدنا اسماء المشتركين من بيروت وسوق الغرب فنشرناها هنا

نسخة		نسخة	
	بيروت	٠١	ديب عاصي
٠٣	البروطوسنجلوس مكاريوس صوايا	٠١	الارشمندريت غفرئيل دروبي
٠١	الايكونومس الياس مجاعص	٠١	نعمة الشويري
٠١	الاكسرخوس جرجس قطيط	٠١	الياس نقولا معماري
٠١	الخوري جرجس جنحو	٠١	امين ابو الروس
٠١	« اسبر الباشا	٠١	نجيب لاذقاني
٠١	« نعمة الله صوايا	٠١	جرجس مخائيل منسى
٠١	« جرجي الحداد	٠١	يوسف كامل
٠١	« مخائيل متبل	٠٢	الحاجة كاترين جهشان
٠١	« نقولا ربيز	٠١	متري اندراوس الغلام
٠١	« سليمان فرنيني	٠١	اسكندر حنا مقبل
٠١	« بطرس الواردبني	٠١	ميشال انطون خياط
٠١	« نقولا عرنه	٠١	ابراهيم يوسف سعد
٠١	« مخائيل السيوفي	٠١	يوسف معيقل
٠١	« حنا ثابت	٠١	رفول القصير
٠٣	الارشيدياكون ايليا صليبي		سوق الغرب
٠١	الشماس جراسيموس غلام	٠١	الخوري جراسيموس فواز
٠١	المتوحد مرجيوس عبدوكا	٠١	داود الصليبي
٠١	المبتدي عازار العازار		

السلسلة الاولى

الرسالة الاولى

ايها العزيز إنجانيوس انك رغبت اليَّ في ان افيدك ما اعلمه من امر النفس وشأن الله · واعتقدتَ اني اهل لذلك لاختباري التجربات ومزاولتي الدرس والمطالعة زماناً طويلاً · ونظري في كثيرٍ مما ألفه المتقدمون والمتاخرون من المقالات الفلسفية · واني قادر عَلَى فتح ما اغلق عليك وتسكين اضطراب قلبك · وتبيين العقائد اليقينية لك في مسئلتين هما من اعظم المسائل ·

الاولى اذوو نفوس خالدة غير مادية نحن ام مجرد بنىً مادية الا انها اكمل من بنى النبات والبهائم من بعض الوجوه ؟

والثانية هل من الهٍ خلق السماوات والارض · أوَ صنعٌ بديع قدير كاملٍ غير محدود هذا العالم ام ناشىء بذاته وفيه نفسه علة وجوده وحياته ونواميسها المعروفة بالنواميس او الشرائع الطبيعية ؟

وقد اصبت باعتقادك انه عَلَى حل هاتين المسئلتين يتوقف قانون حياتنا وسعادتنا · ولكن اعلمتَ ايها العزيز ماذا تبتغي مني ؟ انك

تطلب ان أُبين لك من البداءة الى النهاية ما قدُم وجدّ من المذاهب الفلسفية وان احل ما في ذلك من المشاكل وانتقدها كل الانتقاد حتى تستطيع معرفة صحيحها من فاسدها وتميز حقها من باطلها حتى اذا ادركها ذهنك اخترتَ صادقها ونبذت كاذبها . والخلاصة انك تحاول علم اسمى المذاهب الفلسفية نظرياً وعملياً والاخذ في درسها بلا استعداد اذ انبأتني انك لم تطالع تاريخ الفلسفة وانما حصلت ما قل من مبادئها من اصول المنطق وعلم الادب والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي .

فاقول . ان كنت علمت حقيقة حالك العقلية فلا ريب في ان ما شوش افكارك واقلق لبك من المشاكل هو نتاج تلك المبادىء فاستعنتَ بي دفعاً لها وتخلصاً منها . ولا شك في انك تستحق المديح عَلَى ما اتيته . واني اشكرك كثيراً عَلَى اعتقادك اني قادر عَلَى هدايتك في هذا التيه العقلي الحديث . ولكن اذا كنت ايها العزيز لا ترى لك نفساً ولا ان الله في كل مكان فماذا ينفعك تعليمي الضعيف . واذا كان وجدانك لا يدلك عَلَى انك لست بآلة تتحرك اضطراراً بمؤثرات خارجية وان لك ارادةً وحكماً بالذات فكيف استطيع ان ادخل عقلك واكشف لك صورة نفسك عَلَى ما هي في الحقيقة ؟ واذا كانت عجائب العالم لا تدهشك ونواميس المادة التي علمتها في الطبيعيات لم تدلك عَلَى اله وضع تلك النواميس فكيف اتمكن من

تمزيق كل الحجب الطبيعية واظهر لك من ورائها أشعة الألوهية ؟

عَلَى اني مع ذلك لا امسك عنك مساعدتي الضعيفة انما اطلب اليك ان تشرح لي ما أشكل عليك بلا ادنى تحفظ وان لا تخفي عني شيئاً خشية ان يسوؤني وان تعلن لي مكنونات فوءادك ومخامرات لبك لكي آتيك عَلَى قدر امكاني بالعلاج الناجع بعد تشخيصي داءك احسن تشخيص ·

الرسالة الثانية

من اغانيوس الى فيلوثيوس

استاذي الصالح اني لا اخفي عنك شيئاً من افكاري وانفعالاتي · واشهد ان الشكوك التي اعترتني هي من اشد موءلمات الادواء · واني عاجز عن ان اكافئك عَلَى صالح ميلك اليّ الا باعظم الاخلاص ·

وما عليّ من ذنب بصيري الى الشك في امر نفسي وشان الله لان السواد الاعظم ممن حولي يعملون كأن ليس من اله او كانهم بلا نفوس ناطقة مختارة مكلفة او مسوءولة · ولا اعني بهم الجهلاء واسرى الخرافات وعبيد الاوهام بل مشاهير المهذبين عَلَى اختلاف درجات آدابهم · فانك متى صادفت احدهم وحادثته بما يتعلق بتلك المواضيع ظهر لك حالا انه ينفي الواجب تعالى والنفس او يشكك في وجودهما كثيراً واذا طالعت الكتب العلمية العصرية التي يتداولها

الكثيرون وجدت فيها امثال ذلك من التعطيل والكفر والشكوك فتشوش افكاري واقف موقف الحيرة الهائل ٠

واذا لجات الى العلماء قالوا لي ان النفس صورة خيالية او مجاز يراد به مجموع الفواعل العقلية والادبية الناشئة عن الاعضاء الجسدية ٠ وان لاوجود للروح او هي مجاز كالنفس ٠ وانه ليس في الوجود سوى المادة والقوة ٠ وان القوى مضطرة اي انها تعمل بلا اختيار ٠ وان العالم ازلي وانه متحرك بالطبع اي فيه مبدأ حركة ذاتية تنشأ الظواهر عنها ٠ وان الاله صورة خيالية من جملة ما تخترعه المتخيلة اضطراراً من الصور التي لا حقيقة لها ٠ وهذه الخياليات يعتبرها العامة والأميون ويتخذها بعضهم آلهة ويتخذ الاخر بمجموعها الهاً واحداً ٠ ولكن هذه الخياليات تزول شيئاً فشيئاً بتقدم العلم فليس من حق سوى ما تثبته العلوم اليقينية التي ستهدم الاوثان وتحرر الانسان من كل وهم وخرافة ٠ وتعلن الحقائق المتعلقة به وبالعالم وتوءدي به الى السعادة ٠ واذا التفت الى الامم التي هي اوفر حكمة رايت هذا المذهب سائداً فيها آخذاً من عقائدها كل مأخذ ٠ ورايت الانسان قد قام عَلَى الله ٠ وهو يحاول ان يتمثل بالبهائم عَلى قدر المستطاع ٠ وجمهور العلماء وخاصة المجتمع الانساني عَلَى ان العقليات والادبيات ليست سوى المادة ونواميسها الاضطرارية

فكيف لا أشك في نفسي وغاية وجودي ومقصد حياتي ووجود الله وعنايته ٠ وان صحت تلك العقائد فما هو الانسان ٠ ومن اين اتى

والى اين يذهب • وماذا يجب ان يعمل • وان لم يكن مختاراً فهو غير مكلف • وان لم يكن سوى مادة وقوة مضطرة فما نفع اجتهاده وحكمه وإرادته • وان كان مجرد مادة وقوة اضطرت هذه القوى عَلَى سنن دفع غيرها من القوى المقاومة لها فكيف أستطيع ان اتقي تلك المقاومة وأسير عَلَى مقتضى الارادة • ان العالم صحراء واسعة ما انا فيها الا حبة رمل تدفعها مع امثالها وتقذف بها ريح زوبعية مجهولة فاننا نجهل من اين اتينا والى اين تدفعنا او تقذف بنا •

أفلا يسوغ لي ايها الاستاذ الفاضل ان اكتب اليك اني عَلَى غاية الاسف واني مريض عقلاً وفوءاداً وان أسأل مساعدتك الابوية •

الرسالة الثالثة

من فيلوثيوس الى إجنانيوس

ايها العزيز اني وقفت في رسالتك عَلَى ما الم بنفسك من التشويش الفكري وما تراكم فيها من ردوم الشكوك فاكتأبت ويحق لك ان تكتئب • ولكن ليس لك ان تذم العلم والعلماء لما في عصرنا من زيغ الافكار وترددها •

نعم ان مما يسمى علماً ما يوءدي الى نتائج فاسدة وغايات مفسدة وشكوك لا حدّ لها ويأس لا ينفع فيه عزاء بل منه ما يحمل اهله عَلَى

نفي واجب الوجود والنفس وعلى القول بان الحكم بوجود كائن كامل الذات والصفات غير محدود وبوجود جوهر روحي في الانسان مما ينافي حكم العقل ويناقض بعضه بعضاً ولا يقع تحت الادراك · ولكن ذلك العلم اسم بلا مسمى او ناقص خالٍ من السند اذ لاعلم من العلوم الطبيعية اذا فهم حق الفهم وحصر في الدائرة القانونية يقتضي هدم العقائد الابدية التي اعتقدها الجنس البشري وأيدها أكابر الرياضيين والطبيعيين والفسيولوجيين والفلكيين في العصور الخالية واشهر أرباب العلوم في هذا العصر فانهم اثبتوها واعترفوا بها علناً ·

ومن مثبتيها القدماء أساطين العلم والحكمة الفلاسفة الثلاثة الخالدو الذكر سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس · فعقائد اولئك على غاية البعد عن مذاهب بعض ابناء عصرنا المشككة المؤدية الى القنوط والعقائد الباطلة · وما احسن ان تقرأ مؤلفاً وجيزاً لأرنست ناڤيل عنوانه « فلسفة مؤسسي العلوم الطبيعية » وهو في مكتبة جنوا الجامعة · ومن مضامينه البحث عن علماء العصر السابق · وكفاك من علماء عصرنا الفلاسفة العظماء كوشي وأمبير ودماس وبستير وغيرهم ممن هم في الطبقة العليا من طبقات ارباب العلوم الطبيعية فهؤلاء كلهم يثبتون الواجب تعالى والنفس ويأنفون من عبادة المادة ويمقتون ما يتولد عنها من القنوط · ومن المصائب العظمى النازلة ببعض ابناء عصرنا تهافتهم على تخرصات الفلسفة المادية واعتبارهم انها في اسمى درجات العلم ويجهلون ما

عليها من الاعتراضات ·

واني سأبين لك ما هي النتائج المحققة او اليقينية في علم الطبيعة المادية وانها تهدي الى الله وتقوي الايمان به او تعد الانسان له وتعلن حقيقـة الروح · اما المؤلفات العصريـة فاكثر الفرنسية منها مفسد للأذهان قائد الى الكفر والتعطيل · ولو عرف حقيقتها الشبان المعجبون بها لتحول إعجابهم خجلاً عَلَى ان اكثر المؤلفات الفلسفية في انكلترا وجرمانيا واميركا بعيدة عن الكفر · وفي علمائها كثيرون من المحترمين يضيق بذكرهم المقام · فاطمئن ايها العزيز في هذا الشان · واعلم ان لا داعي لك الى الانفراد عن اهل عصرك والقدح في العلوم والصناعات ومعارف الامم الحكيمة واعتزال ميل العصر الى المباحث والرجوع الى مجرى التاريخ لتؤمن بأنك لست بمادة تعمل عن اضطرار وبان للعالم صانعاً يدبره ويعتني به · وتيقن ان هذه العقائد ليست باوهام العصور الجاهلية وضلالات القدم فيبدد ظلماتها نور العلم الحق عَلَى ما يزعمون · وانما هي يقينيات بل اسمى الحقائق لان منها تنبعث وبها تتعلق نواميس السيرة الادبية وحياة المجتمع البشري وتقدمه التاريخي ابداً · وهذه النواميس التي تشكلت وانتظمت بها الاداب والسجايا الساميـة تتوقف عليها احسن اعمال البشر وانفعها واسمى المآثر وأنماها واوفقها لاحكام الضمير في كل مكان وزمان وفي كل احوال المجتمع الانساني وكل عصر من عصور التاريخ ·

فما بقي هنا الا ان نسلم بان ذلك المجتمع كان منذ اول عهده الى الان يخبط في ظلمات الغيّ . مع انه لم يختلف اثنان في رقي تلك النواميس . واما ان تحكم بان الذين ينفونها وينفون المبادىء المستفادة منها اي الذين ينفون الروح والاختبار الادبي والواجب تعالى وعنايته الالهية قد ضلوا ضلالاً بعيداً .

الرسالة الرابعة

من اغجانيوس الى فيلوثيوس

اثني عليك ايها الاستاذ المحترم اطيب الثناء علَى رسالتك فانها قد اراحت نفسي المضطربة بعض الاراحة .

ولا ريب في ان العلوم تؤيد القول بوجود الله والروح وابرع ارباب هذه العلوم واحكمهم يذهبون الى ان في بنيتنا مبدأ يختلف عن المادة وان له صفات وقوى خاصة لا علاقة لها بما عرف من القوى المادية ويعترفون بكائن ازلي كامل غير محدود وانه صنع العالمين . ولا ريب في ان نفي هذه الحقائق من نتائج العلم الناقص والطيش والكبرياء واني علمت ان ليس من شان العلم الحق ان يؤدي الى الكفر او التعطيل وان معظم علة الشك في حقيقة النفس ووجود الله الأهواء الجسدية واستثقال ما يوجبه الايمان بالله والضمير الادبي فينفر الانسان من كل

ما تأباه شهواتـه وكل ما يصعب عَلَى طبيعتـه المتكبرة التي هي هدف الأهواء . فالكفر ثمرة التهافت عَلَى الشهوات واستباحـة المحظورات والجهل لا ثمرة العلم .

اني لاعلم هذا كله واسلم به من بعض الوجوه واني اعرف ويهون عليَّ التسليم بان المؤلفات الكفرية وغير الادبية المتفشية في بعض انحاء اوروبا ليست من اميال العقل السليم . وانما هي شذوذ جهلي وضلال وقتي لا بد من ان ينسخ عاجلاً او آجلاً فانه ينشأ عن شدة الشر نفسه ردُّ فعل مفيد ورجوع الى الخير الصحيح غير المنفصل عن الحق والصلاح . فهذا أدركته كله . واني حامد لك عَلَى ما أثبته لي من الافكار المعزية في رسالتك . ولكن مع هذا اسألك ايها المعلم الصالح ان تاذن لي ان اطرح لديك ما لا يزال يعروني من الشكوك .

فاقول اني ادرك ما المادة ولكني لا استطيع ان ادرك ما الروح اني ادرك المادة لانها هي كل ما اشعر به بالحس الظاهر من السمع والبصر والشم والذوق واللمس . ولكني لا ادرك الروح . فما هي . وبايـ حاسة تدرك . فانها ليست من المحسوسات اذ ليس لهـا من جسم ولا شكل ولا ثقل ولا صوت ولا طعم ولا رائحة . فاي شيء هي وباي واسطة تعرف . وما الذي يحملني عَلَى الحكم بان فيَّ شيئًا غير ماديّ مع انه لا يحيط بي سوى المواد . اني لا اشك في وجودي ولا في ما هو خارج عني من صور الاشياء وصفاتها وافعالها اذ ادرك الاول

بالحواس الباطنــة والثاني بالحواس الظاهرة . أو َلسنا نتوصل الى كل المدركات بالحس الظاهر . أو َ يمكننا ان نحصل عَلَى شيء من المعارف بدون هذا الحس . فان المعارف تدرك وتنمو وتكمل بالحواس الظاهرة ونموها وكمالها .

وقد ثبت في علم الفسيولوجيا ان كل عمل من اعمال العقل يتوقف عَلَى حركة من حركات مادة الدماغ ويرتبط بها وان كل انفعالاتنا وكل عمل من اعمالنا يتم بحركة الدقائق المادية من مواد اعصابنا . واذ كان كل تاثير من الخارج الى الداخل ومن الداخل الى الخارج مادياً فاين الروح . وما الحاجة الى فرض وجودها او فرض فراغ في بنيتنا يقيم به جوهر مجرد عن المادة نسميه روحاً . اما الله فيجب ان نفرض وجوده لان ذلك من الضروريات . ولكن ما البرهان عَلَى صحة هـذا الفرض او عَلَى ان الله موجود حقيقة . إنا نعلم ان العالم موجود بشهادة الحواس واننا نحن فيه وانه عَلَى قدر تقدم العلم تزيد معرفتنا به وبتركيبه وبنواميسه ولكن من شاهد العلة الاولى اعني علة العالمين . وكيف نتوصل الى ما وراء الطبيعة والى ما فوقها . وكيف نتصور كائناً كاملاً غير محدود مع ان كل ما هو حولنا ناقص محدود . وكل شيء زائل ولا شيء ابدي . وهل من باب ندخله الى هذه المعرفة الخارقــة الطبيعة مع تعذر الوصول اليها من انفسنا ومن العالم . وكيف نجري عَلَى هذا الاوقيانوس العظيم وليس لنا كما قال ليتره من سفينة ولا شراع . فالله

مجهول وانه فوق ذلك يستحيل الوصول اليه بمداركنا اي انه لم يعرف ولا يمكن ان يعرَف ٠

وهنا اكرر معنى ما قلته سابقاً وهو ما احسن لو كنت ذا روح خالدة مجردة عن المادة ولو كان للعالم صانع هو أبٌ للبشر يسجد له كلٌّ منا وانه يدين دينونة العدل بعد الموت ويكافئ مكافأةً حسنةً ويهب غبطةً أبديـة لذوي الفضل والصلاح وأُسلم بان المذهب الادبي المبني عَلَى هذا الايمان غايته الخلاص والفوز ٠ وإنا اذا جرينا علَى سننه فلا شك في انا نفلح ونرقى في درجات الكمال ٠ ولكن ما الحيلة والعلم لا يفتأ ينقض ويهدم كل ما شيد عَلَى آراء آبائنـا ومعارفهم الناقصة وينبذ ظهريّاً كل العقائد الدينية وكل ما وراء الطبيعة ولا يثبت سوى الحقائق الطبيعية والمقدمات اليقينية التي يقوم بها البرهان ٠ والحق ان تجديد أصول العلم عَلَى هذا المنهاج سيأتي من المبادىء السياسيـة والادبيه والهيئة الاجتماعية بما هو احسن من امثالها المعهودة الى اليوم٠ أوَ ليس الحري ان تفضل الحقيقة أبداً ٠ ولا عجب من ان ينشأ عن اكتشاف الحقائق الجديدة وإدخالها في دائرة العلم تشويش وقتي في الافكار ومباحثات ومناقضات فان ذلك من المعهود في كل تقدم واصلاح٠ ومن شأن الضلال القديم محاربة الحقائق الحديثة ولكن الى حين ثم تفوز الحقائق وتنشيء بظفرها ترتيباً حسناً بدلاً من الترتيب القديم فتتوفر سعادة الانسان وتتحقق سريعاً وتدرك الغاية التي وجد لها

هذا ما خطر لي بعد تلاوتي رسالتك الاخيرة والشك لا يزال يقيمني ويقعدني ويعذبني فاسرع يا مولاي وادفع شكوكي ولا تقتصر عَلَى الاجمال وعَلَى التفنيذ بدلالة الالتزام بل فصل البيان في كنه المسئلة واستأصل الريب والكفر واهدم كل ما دون اليقين من الحواجز عَلَى التوالي اذا شئت نجاتي واني واثق بانك تشاء

الرسالة الخامسة

من فيلوثيوس الى إجانيوس

أصبتَ كل الاصابة ايها الحبيب إجانيوس . فان العلم الباطل لا يدفع الا بالعلم الحق وتفنيد المدعى بالذات خير من تفنيده بالواسطة . لكن من المبادي الأولى ان ذلك يتوقف عَلَى معرفة الضلال ومصادره واسبابه تمام المعرفة . والضلال في موضوعنا ناشئ عن امرين

الاول سوء الفهم وعدم استخدام العقل السليم واطلاقه في ميدان التوسع في الرأي وغايات نتائج العلم المادي .

والثاني فلسفة يدعى انها الفلسفة اليقينية مع ان في جهلها الفلسفة الحقيقيـة وسننها القويم ومقصودها الصحيح . ويحاول اربابها إثبات انها هي العلوم الطبيعية عينها تمويهاً لها بما يحلوها بهيئة العلوم المحققة . ولكن العلوم الطبيعية الصحيحة والعلوم الرياضية تكشف هذا التمويـه

وتبين فسادها · ولا بدَّ لمعرفة مصادر الضلال وتفنيد اصوله من شيئين
الاول معرفة ما للعلوم الطبيعية من النتائج اليقينية عَلَى الحكم بوجود
الله والنفس الناطقة المجردة عن المادة

والثاني اقامة البرهان القاطع عَلَى بطلان تلك الفلسفة الجديدة والتواء
سبيلها ونقصان مبادئها وفسادها فهل لك صبر وعزم عَلَى اتباعي في
هذين البحثين · وانا استفرغ المجهود في ان اسهل لك الطريق التي
ننهجها معاً · وسأعتزل كل ما يعسر فهمه وكل ما لا يدركه الحسّ·
ولكن يجب عليك ان تتبعني بشديد الانتباه اتباعاً متصلاً بدون ادنى
ريبة وان ترغب كل الرغبة في ان تعرف الحق وتبتغي الحقيقة فانها هي
الدواء الناجع الذي يبرئك من داء الشك الاليم وعلة الكفر التي
شبت فيك · فان الحقيقة وهي الامر الثابت بالذات ترد اليك ما كان
لك من السكينة في صباك ايام كنت تؤمن بلا بحث ولا جدال
وبدون ان تعلم غاية وجودك في هذا العالم وما يجب عليك عمله لتتم
ناموس الله وتبرر لديه حسب اعمالك · هذه السكينة هي مبدأ السعادة
الاول في هذا العالم · وهي الكنز الثمين الذي كدتَ تفقده وسأجتهد
ان اردّه اليك فتشجع واتبعني لانني أعدك منذ اليوم لما ياتي من
التعاليم ·

ان من جملة ما في رسالتك الاخيرة من المسائل ما يحتاج كلٌّ
منها الى بحث مستقل وهي التي يجب ان تحلها اولاً لانها اذا حُلت كما

تنبغي مهدت السبيل الى حل ما ورائها من المسائل · قلتَ لي انك تدرك المادة لكنك لا تقدر ان تدرك الروح · وان المادة هي كل ما تشعر به بالحواس الظاهرة ولذلك لا يمكنك ان تشك فيها · وان الروح يستحيل التوصل اليها · ولذلك لا تدرَك ولا تُتصوَّر · وعلى اقل ما في امرها انك تشك فيها · ولكن لا تعجب اذا قلتُ لك عكس هذا · وهو اني ادرك ما الروح ولكن لا ادرك ما المادة · وان الحواس نفسها غير المادة · فالحقيقة ان المادة تحدث بتحرك دقائقها تاثيراً في المشاعر اي حركةً اخرى للدقائق المادية في الجهاز العصبي والاعصاب تنقل هذه الحركة الى مركزٍ ما · ومن هذا الانتقال تتولد فينا تلك الظواهر التي نسميها مقاومة وثقلاً وصوتاً وسمعاً وذوقاً ورائحة · فهذه كلها فينا وما للمادة بالذات شيء منها · وهي كلها تنشأ فينا فهي في نفس الامر من الحس الباطن · وليس في العلوم المادية ما يبين لنا حقائق اللون او الصوت او الرائحة · فالمادة لا صوت لها ولا لون ولا رائحة ولا طعم ولا خشونة ولا ملامسة ولا حرارة ولا برودة · وهذا العالم العجيب الذي يدهشنا بعظمته وترتيبه وجماله قائم بالشعور · فلولم يكن لنا مشاعر تقبل تاثيرات الدقائق المادية واعصاب تنقلها الى مركزٍ ما ونقطة مركزية تتحول فيها تلك التأثيرات حساً لم يكن العالم المادي الا مجموع دقائق تتحرك · واذا رمنا معرفة الدقيقة المادية لم ندرك الا انها مجهول ينشيء تاثيراً ·

واذ كنا نعتبر المادة العلة الاولى للتأثيرات ننسب اليها الحوادث الناشئة عن الحواس اي المدركات الحسية كاللون والصوت والطعم والرائحة فنقول هذا الجسم احمر حلو طيب الرائحـة الى غير ذلك من الصفات الحسية وان لم تكن هذه الصفات لشيء من الدقائق المادية التي يتركب منها الجسم اي ليست لمجموعها ولا لافرادها · والعلوم كلها على وفاق في هذا الشان · والخلاصة هي إنا ننسب الى المادة ما يحدث في انفسنا من نقل الحوادث من الخارج الى الداخل حتى انه لو عُدِمت الخارجيات لأمكن على طريق اخرى ان تحدث تلك الحركة الثي تنقلها الاعصاب وينشأ عنها الحس كما يحدث في بعض الامراض التي يرى فيها ما ليس في الخارج ويشعَر به · وَلكن لنا حواس لا موءثر فيها كما في الخارج كما يفقد الحس بالمؤثر لانحراف اعضاء الحواس او تغيرها يبعض الامراض فلا يكون من شعور · أفلا يسوغ لي بعد هذا ان اقول لك اني لا ادرك المادة ولا استطيع ان ادركها · والحق ان المـادة ليست سوى سبب مجهول لتأثيرات خارجية ولهذا ذهبت فرقة من الفلاسفة الى نفي المادة فزعمت ان العالم مجموع قوى مجهولة نشعر بنتائجها بانفسنا في انفسنا اي انه لا شيء من هذه النتائج في الخارج علىَ اني لا اذهب مذهب هذه الفرقة ولا اغريك بمجاوزتها الحد فتعتبر الامور كلها خيالات توءدي الى الشك في وجود القوى الخارجية · ولا تصعب اقامة البراهين المنطيقية على اثبات الاشياء الخارجية وهنا اكرر القول بان هذه الخارجيات

ليست سوى دقائق مادية تحركها قوة مجهولة · وما تلك الطبيعة التي يدهشنا جمالها ويؤلهها بعضهم ويعبدها الا نتاج فعل داخلي ينشأ عن العالم الخارجي · فهي وان يكن لها ابعاد وشكل لا شيء لها من الصفات التي ننسبها اليها لنشوئها فينا بواسطتها · وهذا القول ليس من مواليد رأيي الخاص انما هو مما اقتضاه العلم المسلم به عَلَى الاطلاق ومما اجمع عليه علماء النفس وعلماء الفسيولوجيا وعلماء الطبيعيات · ومن هذا يتبين لك ان القائلين بانه لاجليّ الا المادة هم في طيش فظيع وضلال بعيد

فانظر هنا ما الروح · وآمل ان ذكاءك قدّرك عَلَى ادراك هذه المسئلة التي اوضحتها لك · فالروح هي ما فينا من القوة التي بها نشعر وندرك ونفهم ونعمل · ولولا هذه القوة لم يكن فينا شيء من الحوادث العقلية والادبية · فان قلتَ كيف نستطيع ان ندرك النفس وهل لنا من حواس تمكننا من ادراكها قلت ان الروح ايها العزيز هي حاسة الحواس · وهي الركن الذي لا غنى عنه لكلّ من سائر الحواس · أفلا تعلم حين تشعر انك تشعر وحين تتذكر انك تتذكر الى غير ذلك من هذه الاعمال · أوَلا تعلم هذه الاعمال كلها علم اليقين · وهل لك معرفة بشيء اوضح من معرفتك هذه الحوادث الداخلية واكمل منها وهذه المعرفة الداخلية المعروفة بالوجدان والشعور الذاتي هي معرفة يقينية واوضح كل ما سواها من المعارف واكمل منه فهي معرفة المعارف ·

انها تجهل المادة ولكنها تعرف الروح وبها يتوصل الى سائر العلوم ٠ ولا وقت هنا لبيانها وايضاح اهميتها وشرح حقيقتها وصفاتها والمقصود بها وتفصيل الشرائع المستولية عَلَى النفس التي بمقتضاها ترتب افكارها واعمالها العقلية ٠ وسترى كل هذه المسائل في أثناء البحث ٠ واني واثق باننا نحل كل ما فيها من المشاكل ٠ وقد رسمتُ في ذهنك هنا صورتي المادة والروح رسماً عقلياً او ظلياً لاننا نحتاج اليهما في الطريق التي عزمنا عَلَى السير فيها لان معرفتهما تضيء لنا في نهجنا ٠

اما المسئلة الاخرى في رسالتك وهي قولك ما هو الله فلا استطيع ان اتكلم فيها هنا لانك ربما لم تدرك كل ما اقوله في شأنها ٠ وكيف يمكنني ان افيدك معرفة الله قبل ان تعرف نفسك ٠ فهل سلمت ايها العزيز بكل ما ابنته لك الى الان حتى استطيع ان اجاوزه الى غيره

الرسالة السادسة

من إفجانيوس الى فيلوثيوس

ايها الاستاذ الحكيم ٠ اني سلمتُ بعض التسليم بما شرحته لي في رسالتك اي سلمتُ بان المادة ليست سوى مجموع دقائق ينشأ عنه الامتداد (اي الابعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق) والاشكال المختلفة وان هذه الدقائق تحركها قوة مجهولة لا ترى فتحدث فينا حركة

اخرى تنشيء النور واللون والصوت والرائحة وكل الوجدانيات اي الحوادث الباطنة او الداخلية التي تحدث فينا فننسبها الى المادة الظاهرة او الخارجية مجازاً ·

ومن هذا نفسه نتج ان دروس هذه الحوادث اي العلوم الطبيعية كلها من توابع علم النفس فهو مقدَّم عليها بالضرورة · ولكنني اقول هنا أليس القوة المودعة فينا التي هي المنشئة العالم الوجداني مادية · أوَ ليس كل بنيتنا والاعصاب التي تنقل الحركة والنخاع الشوكي والدماغ وكل المراكز التي تنتهي اليها الحركة كذلك · فلماذا لا نسلم بان كل الوجدانيات التي تكلمنا عليها آنفاً هي نتائج تحرك دقائق بنيتنا المادية · وما الداعي الى فرض شيء غير جسمنا لبيان نشوئها · افلا ترى ان ذلك كله يصدق علَى المادة · أوَ لم يقم البرهان علَى ان القوة العقلية علَى نسبة حجم الدماغ وان القوى الجزئية والذاكرة والمتخيلة وسائر القوى الباطنة علَى نسبة حجوم خاصة في المادة الدماغية · أوَ ليس الواقع انه اذا كان الدماغ سليماً كان العقل كذلك · وانه اذا كان الدماغ مؤوفاً لم يسلم العقل من الآفات · أوَ ما رأيتَ ان المريض لا يحسن استدلالاً ولا تفكيراً وان العقل ينمو بنمو الجسد ويقوى بقوته وينقص بنقصه ويضعف بضعفه وانه اذا فني الجسد فني العقل بفنائه ·

ولا اظن ايها الاستاذ الفاضل انه ينكر منصف هذه الحقائق وما ينتج عنها او يتفرّع عليها · اني اسلم باني ادرك بالوجدان ما في نفسي

اكثر مما ادرك بالحواس الظاهرة ما في الخارج ولكني لا ارى هذا يستلزم ان وجداناتي ليست بحوادث مادية بل اراها تستلزم العكس . هذا ولا ادري بماذا تجيبني عَلَى هذه البينات (التي هي عَلَى مبلغ علمي لا تدفع والسلام)

الرسالة السابعة

ا

من فيلوثيوس الى اغاثيوس

رسالتك الاخيرة ايها العزيز اغاثيوس غزر معناها ووجز لفظها ولكنها لم تحط بتحقيق المعاني . وهنا اقول ما اظنك تعجب منه كل العجب وهو انا الان عَلَى وفاق . وان رجائي اقناعك بالحقائق المؤدية الى نجاتك من مقلقات الشكوك قد صار يقيناً

انك سلمت بان المادة امر خارجي مجهول وان ما ينسب اليها من الصفات انما هو فينا لا فيها . وحقيقتها انها نتائج تاثير وجداني يباين حركات الدقائق المادية كل المباينة . وما العلاقة بين الحركة والحوادث المتعددة التي يمكنها ان تنشئها فينا . ان الحركة الواحدة عينها تنشىء النور والحرارة والكهربائية كما عرفتَ في الطبيعيات ولكن تلك المنشآت المختلفة غير الحركة (لاستحالة ان يكون المؤثر والأثر واحداً) . واذا ثبت هذا لزم ان هنالك امراً غير المادة يلابس التأثير المادي فينشىء

بتلك الملابسة تلك الوجدانيات كما تدل عليه النتائج

ان العلوم الطبيعية تحلل المواد والاجسام. وعلم الكيمياء العضويـة (او الآلية) يتكفل بذلك وبما فوقه . فلا يقتصر عَلَى تحليل جسومنا الى عناصرها. فهو يحلل الاعصاب والعضلات وخيوطها والعظام. والفسيولوجيا تبين وظائف الاعضاء وعلاقاتهـا وتالف حركات دقائقها عَلَى حسب تاثيراتها من النقطة التي تبتدىء منها في الخارج الى النقطة التي تنتهي اليها في الداخل . وحللوا هذه الحركات الى حركات دقيقة لا تحصى تحصل بها التأثيرات المختلفة للاعضاء المختلفة ولا سيما العين والاذن . وضبطوا هذه كلها بضوابط رياضية ولكن لم يقفوا بعد كل هذه الاعمال الا عَلَى دقائق متحركة . فاضطروا لكي يعرفوا نتائج تلك الحركة الوجدانية ويعرِّفوا غيرهم اياها الى ان يطرحوا تحليلاتهم ورياضياتهم ويلجأوا الى واسطة اخرى هي الوجدان او العضو الذي يقوم هو به . فان لكل من الحواس الظاهرة عضو «هو آلته». فهل لك ايها العزيز العضو الذي يقوم به الوجدان او آلته . فان العين آلة البصر والاذن آلة السمع الى آخر ما هنالك من المشاعر . فما هي آلة الوجدان الذي به اعرف اني انظر واسمع . واين هي وكيف ترتبط بسائر الاعضاء . وما العناصر التي تتألف منها وما نسب العناصر فيها من هدروجين واكسجين وكربون. ان الوجدان حاسة الحواس الظاهرة التي الى الان لم تتكلم الا عليها وليس له من عضو مختص به ومقوم لعمله . وهل للوجدان اعضاء او آلات

كثيرة هي آلات الحواس الظاهرة ٠ ان هذا لا يدرك وليس له محل من الحقيقة لان تاثرات المشاعر لا تبقى فيها بل تنتقل ٠ فقل لي الى اين تنتقل واين تجتمع ٠ واين تصير كلها واحدة ٠ وكيف تصير كذلك وما هذا الواحد الذي يلائم هذه كلها والذي بدونه تكون كأنها لم تكن بالنسبة الينا وتمسي غريبة عنا او مجهولة لا علاقة لها بنا ٠

ومن المحقق إنا ندرك بآلة الحس ومما لا يجهله المبتدئون انّ التأثر يرجع بعد الانتقال الى حيث ابتدأ ويستقر في عضوه او آلته ٠ واذا انقطعت الصلة بين الآلة والدماغ كان التأثير كانه لم يكن وفقد الحس فاين ذلك المستقر الذي به يحصل الحس ٠ فهل هو دقيقة مادية ذات حجم ولون ورائحة وبِمَ نستطيع ان نكشفه أبالتحليل الكيمي ام بالمجهر المعروف بالمكرسكوب ٠ وكيف يتاح لنا ذلك وكل دقائق الجسم تظل مدة الحياة تفنى وينشأ غيرها في محلها حتى لا يبقى منها شيء بعد بضع سنين ٠ ولكن الوجدان يبقى ولا يتحرك ولا يتجدد وتبقى صفاته الذاتية كلها بدون ادنى تغير ٠ وهل تتغير النفس او تفنى ويخلفها غيرها ٠ فلا يمكن علَى هذا ايها العزيز ان تكون الدقيقة المادية او مجموع الدقائق الحسية نفساً لانه يصدق علَى مجموعها ما يصدق علَى فرد منها ٠ والكثرة تنافي الوحدة النفسية ٠ نعم يمكن ان يترتب المتعدد لمقصد عام او مشترك كما تترتب الاعضاء المختلفة في البنية الواحدة ولكنها لا تكون وحدة حقيقية ٠

ثم ان الوحدة تطلق عَلَى مجموع افراد ائتلفوا لغرض او مقصد ولكن تلك وحدة مجازية لا حقيقية كاتحاد جماعة من العسكر يتألف منها كتيبة او فيلق ومثل ذلك انتظام افراد جمعية او لجنة فحقيقة مثل هذه الوحدة ائتلاف للموازرة عَلَى امر من الامور او عمل من الاعمال فشتان ما بينهما وبين الوحدة الحقيقة . وهل يمكنك ان تفرض الشركة وائتلاف الافراد في الواحد كالنفس . فوحدة النفس ليست وحدة ائتلاف انما هي وحدة واقعية لا يتطرق اليها شيء من المجاز . وهي الوحدة الحقيقية الوحيدة في هذا العالم لان كل ما فيه سوى النفس مادة تتعدد وتتجزأ وتشغل حيزاً ومهما تجزأت وصغرت دقائقها فلا بد من ان تكون ذات ثلاثة ابعاد اي تمتد في ثلاث جهات هي الطول والعرض والعمق . والامتداد والوحدة متنافيان ومتضادان او هما عَلَى طرفي نقيض فقولك وحدة ممتدة قول متناقض فهو محال . والوجدان يقتضي الوحدة الحقيقية التي يستحيل فيها الانقسام ولا محيد له عنها . فهو يستلزم ان العالِم والمعلوم او المُدرِك والمدرَك شيء واحد . فاذا لم يكن للنفس هذه الوحدة بان كانت مجموع دقائق فمهما تقاربت او التصقت تبقى كل منها عين الاخرى . وما يحدث في احداها يجهله سائرها ولا تقدر واحدة منها ان تدعي الشعور بالاخرى

فالمادة لا وجدان لها سواء أكانت دقائق متفرقة أم كانت دقائق مجتمعة . ان الوجدان يقتضي الوحدة وما للمادة من وحدة . فاذا كان

لنا وجدان وهو ما نسميه روحاً او نفساً او ما شئنا لاعتبار من الاعتبارات ليس بمادة · فتأمل في كل هذا ايها الحبيب وتدبره واسمح لي ان اذكر ما بقي من هذا البحث في رسالة اخرى

الرسالة الثامنة

من فيلوثيوس الى إجانيوس

لم تجبني ايها العزيز إجانيوس عَلَى رسالتي الاخيرة اما لانتظارك بقية جوابي واما لعدم ما تعترض به وهو الارجح · فان البرهان المستفاد من وحدة الوجدان عَلَى ان النفس ليست بهيولى لا يدفع · وهو حجة رياضية مستفادة من حقيقة المادة عينها عَلَى ما اثبته علماء النفس وكل علماء الطبيعة ·

ونفاة الروح انفسهم يعترفون بوحدة الوجدان لكنهم لا يقولون بانها وحدة حقيقـــة لا تتجزأ كما يقتضيه العقل بل يقولون بانها مجموع اشياء وهذا هو التناقض بعينه · ومفاد مذهبهم انهم يعدلون عن الحكم بنفس واحدة الى الحكم بنفوس كثيرة لا تحصى وهي دقائق المادة الدماغية · ولكن هذه الدقائق الوف وربوات تكاد تكون لا نهاية لها فيزيدون بها الصعوبة الى غير النهاية ولا يجدون الى دفعها سبيلاً · بل يجعلون دفعها محالاً لانهم يبعدون عن الوحدة عَلَى قدر زيادة الدقائق

وكيف تتفق الوحدة والتعدد · ولا يقتضي الوجدان وحده هذه الوحدة الضرورية بل يستلزمها كل عمل عقلي وعمل ادبي كالذكر والتصور والتصديق الذي هو الحكم والاستدلال والاقيسة المنطقية والارادة وما شاكل ذلك · وما لعمل من اعمال الروح ان يغير وحدة الوجدان ويوضح ذلك احسن ايضاح بطريق التحليل بمقتضى اصول الفلسفة العقلية · وسنبحث عن المستغرب منها اذا شئت · ولناتِ هنا الى القسم الثاني من رسالتك

فقل لي ما المانع من ان تجمع تلك القوة الواحدة في نفسها التأثيرات الخارجيات في الاعضاء الجسدية وتتصورها فتكون لها علاقة بتلك الاعضاء وتغيراتها فتتغير اعمالها بالتغير العضوي · ولا ريب في ان اعمال الروح هذه تتوقف عَلَى احوال الاعضاء الجسدية فاذا فقدت المشاعر فقدت معرفتنا بالخارجيات · واذا اضطربت وظائفها لحق الاضطراب باعمال النفس العقلية والادبية لان كل عمل من اعمالها يتوقف على تغير الدقائق المادية في الدماغ او في الجهاز العصبي · والحق ان ادوار الحياة الروحية تتوقف بعض التوقف على ادوار الحياة الجسدية وان بعض امراض الدماغ تشوش الوظائف العقلية وقد تبطل بعضها · ولا انكر ان زيادة المادة الدماغية امارة على القوة العقلية على ان في ذلك بعض الشذوذ كما اجمع عليه علماء الفسيولوجيا في المباحث الدماغية ولكني لا اسلم بالاراء المتعلقة بالمراكز الدماغية لاني رايت علماء الفسيولوجيا

قالوا انهم لم يجدوا عضو الحساب في دماغ نابوليون وانهم وجدوا العضو المتعلق بادراك ما وراء الطبيعة في أدمغة الخنازير . واقول فوق ذلك ان الملامح والعين وحركات الجسد وكل الانسان الخارجي تصوّر الانسان الداخلي وتعلنه . واذا عرف احد العلاقة بين النفس والجسد المعرفة التامة عرف داخل ما سواه من الناس كما نعرف من قراءة كتاب ما افكار مؤلفه . وكل هذه الامور سأبينها لك بالبراهين العلمية القاطعة لا بالتخيلات والفروض . انه يتبرهن بالعلم اليقين وجود العلاقة بين النفس والجسد واستحالة ان تكون النفس هي الجسد عينه وكونهما واحداً لم يستطع أحد ان يبرهنه ولن يستطيع . أعلمت الفرق ايها العزيز بين الامرين .

ان الفرق عظيم بين القول بان احد الامرين يتوقف علَى الاخر والقول بانهما شيء واحد . أوَ لم تدرك ان عدم التفريق بينهما منافٍ لحكم العقل السليم . وهل خطر لك ماذا يصير العالم لو كان كل امرين يتعلق احدهما بالاخر او يتوقف كل منهما علَى الاخر شيئاً واحداً ان لنا علاقة باصغر حبة رمل في قرار الاوقيانوس وبابعد نجمة في قبة الافلاك فهل نحن وكل منهما شيء واحد . ان علاقة النفس بالجسد وتأثرها به الى حدٍ معين لا بد منهما لانها في مجموع الاعضاء تفتكر وتريد وتشعر وتفهم وتعمل . وقلت الى أحدٍ معين لان تلك العلاقة ليست مطلقة كما ظن بعضهم اذ لا تكافوء بين قوة الجسد

وقوة العقل · وكثيراً ما يكون الامر عَلَى الخلاف فتقوى الروح وتكمل اعمالها في حين يذبل الجسد ويضعف · واعمال النفس تكمل بلا مانع كل حين ولا سيما حين تخلو من تاثير الجسد وتستريح من إزعاجه · ان الجسد يعاون العقل كخادم مطيع فلا يسود العقل بل يخضع له · ولا علاقة له به كالعلاقة بينه وبين الوظائف الجسدية كالهضم والتنفس وغيرهما من الاعمال البدنية · وهو يشعر بنقص اعضائه الجسدية ويكمل باخرى يخترعها عمله ويملك الجسد ويخضعه واذا شاء اهلكه · وهو مع كونه في الجسد يطوف في كل مكان بقوته الذاتية · وبواسطة المتصرفة او المتخيلة يخلق عالماً لا كيان له الا في الخيال · ويدركه غير المحدود بقوة النطق ويضبطه في حساباته · ويخترع في عالم الهيئة الاجتماعية والمدنية فضلاً عما يخترعه في عالم المادة · وان كان الجسد هو الذي يفعل ذلك لا قوة اسمى منه فلماذا لا تفعل البهائم مثله مع ان لبعضها بنية عضوية عجيبة جداً كما ثبت بالتشريح والفسيولوجيا · والقرد يكاد يكون كالانسان في البنية وهذا مما بنى عليه دروين مذهبه بناء عَلَى زعمه ان الاختلاف بين اسمى القرود وادنى الناس في الدرجة لا في الحقيقة · ولا موضع هنا للمناقشة في مذهب دروين ولا في بيان سائر تعليمه ومقابلة طبائع النفس بطبائع حياة البهائم وفي المشابهة والمخالفة بين الفريقين وتعيين درجة الانسان في سُلَّم الكائنات · ومرادي هنا ان اثبت لك بصحيح البرهان امرين

الاول ان عمل النفس ليس بعمل مادي لان وحدتها محضة ولا يتضح مبدأها الا بالوحدة فهي واحدة في كل احوالها وهذا يباين خواص المادة كل المباينة لانها متعددة ومتجزئة ومتغيرة ٠

والثاني ان تاثير الجسد في النفس لا يستلزم ما يخالف ذلك المبدأ فتأمل ٠

الرسالة التاسعة

من إفجانيوس الى فيلوثيوس

استاذي الفاضل اسمح لي ان اقول انك كلما زدتني إيضاحاً زاد إبهام الامور عليّ فمثلي لسوء الحظ مثل الصاعد في الجبال الشامخة وهو يبذل الجهد في ان يبلغ القنة فمتى بلغ اعلى احدها ظهر امامه آخر اعلى منه ومتى بلغ قمة هذا ظهر آخر ارفع منه وهلمّ جراً ٠ فيظهر لي ان لا نهاية لارتقاء نفسي وقد اخذ مني اليأس كل مأخذ لاني اجهل متى ابلغ اسمى القنن حيث تطلع شمس الحقيقة لا يحجبها سحاب

سلمت واسلم بان المادة ليست سوى مجموع دقائق متحركة وان صفاتها المحسوسة هي الانفعالات او الوجدانيات او التأثيرات الباطنة التي ننسبها اليها ٠ واسلم بان الوجدان او الحس الباطن الذي فينا يبرهن بهذه الانفعالات انه والنفس شيء واحد ٠ وان القوة الواحدة التي هي

عينها فينا وتشعر بوجودها ونسميها روحاً ونفساً تعمل غير ما تعمله المادة · افدتني في اخر رسالتك ان عمل النفس أليس بعمل مادي فاي عمل من الاعمال هو · فاني لا اعرف من انواع التأثير سوى واحد وهو تأثيرات القوات الطبيعية في المادة · واعلم ان هذا التأثير حق وانه هو موضوع العلم · واعرف ان علم الطبيعة يبحث عن تأثير القوى الطبيعية ودرجاته ونتائجه وعلاقات القوى واعمالها ويضبط هذه كلها بالحسابات الرياضية المحققة النتائج التي لا تدفع وتبنى عليها علوم وصناعات بل كل الصناعات البشرية تقريباً ·

فالعلم الطبيعي يحسب ويقيس قوة الجذب والحركة والحرارة والبخار والكهربائية والنور وما شاكلها · فاي علم يمكنه ان يبحث عن القوة الروحية غير المادية وباي حساب يمكن ان تضبط · وان ثبت وجود هذا التأثير افليس هو موضوع علم من العلوم واذا اعتبر هذا التأثير فعل قوة من جملة القوى المادية المعروفة بتوالي تقدم العلوم الطبيعية كان حينئذٍ البحث في النفس باباً من ابواب علم الفسيولوجيا وسيبرهن الادراك انه عمل من اعمال الاعضاء المادية فيكون عمل الانسان الادبي بمثابة حركة الآلة البخارية بواسطة تحليل مركباتها وتفكيكها · ومن البديهي ان عناصر المادة بين ايدينا واننا نستطيع ان نركبها كما يوافقنا · فلماذا لا نأمل ان العلم سيمكننا من صنع بنية انسانية لا توجب العجب كما يوجبه صنع تلك الآلات الغريبة التي لا تقل عن بنية الانسان الطبيعية · ايها

الاستاذ الفاضل اني ادرك التأثير المادي والعلم الطبيعي ولكن يتعذر علي ادراك التأثير الروحي غير المنسوب او المتوقع ان ينسب الى تاثير قوة معروفة في العالم

نعم اني لا استطيع ان افهم او ادرك او افرض علماً يبحث عن تاثير سائر القوى هذا واني لأخشي ان رسالتي هذه تغيظك ولكني استجير بحلمك اذ اذنت لي ان اتكلم باخلاص وجرأة · وانك طالما قلت لي ان تاثير النفس غير تاثير المادة أفليس لي ان اسأل عن حقيقة هذا التأثير وعن العلم الذي فيه يمكن ان يبحث عنه ·

الرسالة العاشرة

من فيلوثيوس الى إجانيوس

ان رسالتك ايها العزيز لم تغظني شيئاً بل سررت بها وكنت اتوقع ان تكون كذا · واني عهدت منذ زمان بعيد ان كل ما كتبته منقول عن مبادىء مذهب فسيولوجي لبعض الفلاسفة القائلين بان الادراك مفرز دماغي وان التاثيرات الادبية نتاج تأثيرات كيمية · ومن آراء تباع هذا المذهب · ان كلاً من الفضيلة والرذيلة الفة كيمية كالفة الحديد للكبريت · وهذا ليس بغريب ان يصدر عن اولئك الفلاسفة لان من يذهب الى ان ليس في العالم سوى المادة والقوى الطبيعية لم

يبقى له الا ان يقول ان اختلاف العقول باختلاف نسب العناصر القليلة التي تتركب منها كل البنى العضوية . ويلزم من هذا انه اذا وضع مقدار وافر في دماغ قرد صار دماغه كدماغ افلاطون وأريسطوطاليس . هذا من امثال ما يجاهر به بعض فلاسفة العصر . فلا عجب من ان يكون قولك صدى اقوالهم .

قلت لك اني توقعت ان تكون رسالتك كذا لاني بعد ان اثبت لك بالبرهان ان عمل النفس غير عمل المادة كان من الطبع ان تسألني عن طريق هذا العمل وناموسه وعن إنا هل نبحث عنه كبحثنا في العلم عن سائر القوى او في طريقته او بغير ذلك من الوسائل . وعن انه هل يضبط بالقواعد الحسابية التي تضبط بها النواميس المادية . سررت باتيانك بهذه الاسئلة لان ذلك دل عَلَى وفرة نباهتك وذكائك . وهذا يحملني عَلَى التقدم الى البحث الفسيولوجي الذي لا بد منه لتسكين اضطرابك وفتح ما اغلق عليك . لكن ارجو منك ان تقتفيني في هذا السبيل .

ان طريقة عمل الروح ليست بطريقة عمل المادة . فان المادة كما قلنا تعمل بتحرك دقائقها . واذا صدق اكثر الطبيعيين ان الاعمال الكيمية وتولد المركبات ترجع الى التركب الميكانيكي فهي ليست سوى حركة كما يعرف من الميكانيكية وهي في كل مكان وناموس كل الة وكل حركة وبالاجمال كل قوة مادية عرفت ليست الا حركة اضطرار .

ولذلك ضُبط عمل القوة المادية بقواعد الحساب · وهذه القواعد لا يتطرق اليها الخطأ ولهذا كان كل ما اكتشف من النواميس الطبيعية لا يتخلف ابداً · ونبوءات العلم تصدق كذلك · فقل لي هنا اتصدق هذه كلها عَلَى عمل الروح · ان العمل الروحي ليس بحركة الدقائق المادية وان سلمنا بان كل عمل من اعمال الروح يتعلق بعض التعلق بحركة مادية لا نسلم بان العلاقة بين امرين تستلزم انهما شيء واحد · ان الحركة البسيطة لا توضح شيئاً من حوادث الروح وكذا الظواهر التي تنشأ عن المشاعر ·

وقد راينا ان الحركة الواحدة تنشىء محسوسات مختلفة تباين الحركة كالنور والصوت والحرارة · فاذا صدق هذا عَلَى المحسوسات افلا يصدق عَلَى المعقولات او الاعمال العقلية السامية البعيدة عن المادة كل البعد فالحركة لا تماثل القياس ولا الادراك غير المحدود ولا المخترعات الخيالية التي تخترعها المتخيلة ولا توضح شيئاً من ذلك · وقل لي باي حركة من حركات المادة اكتشف دماغ نيوتون ناموس الجاذبية العامة وألَّف دانت الرواية الالهية ذات الفصول الثلاثة · وباي حركة تنشأ فينا عاطفة الشكر او تتولد محبة الخير والشجاعة فهذا كله لا ينسب ولا يمكن ان ينسب الى مثل تلك الحركة ولا الى حركة من الحركات الميكانيكية عَلَى اختلاف صنوفها · فطريقة العمل المادي غير طريقة العمل الروحي ويتفرع عَلَى ذلك ان ناموس كل منهما يباين الاخر ·

فناموس المادة الاضطرار وناموس الروح الاختيار · ولهذا امتنع البحث عن تاثير النفس الداخلي بالملاحظات الخارجيـة وبالعمليات والادوات المادية · ولكون هذا التأثير اختيارياً امتنع ان يضبط بالقواعد الرياضية او الحسابية · ولهذا كانت نبوءات العلم بالافعال البشريـة لا يطرد صدقها بخلاف الظواهر المادية · فان النبوءاة بها تصدق ابداً · فان قيل كيف يبحث عن عمل الروح وكيف يرتب العلم الذي يبحث فيه عن ذلك العمل · قلت يبحث كما يبحث عن سائر الاشياء التي اشتغلنا بها من اول عهدنا حتي الان

فاذكر كيف اقنعتك بان المادة هي غير الحاسة وان شعور حواسنا علته قوة فينا وان الوجدان او الشعور الذاتي يستلزم وحدة جوهريـة حقيقيـة من انواقعات وان الوحدة والمادة شيئان متنافيان · فهذه كلها قد برهناها بالملاحظة الداخلية والادراك · ونسبة الملاحظة الداخلية الى حوادث الروح كنسبة الملاحظة الخارجية الى حوادث المادة · بل يمكن ان تعتبر هاتان الملاحظتان الى حدٍ ما واحدةً · لانه اذا صدق كما أبنا أنا نعرف الحوادث الخارجية بواسطة الانفعالات او الحوادث التي فينا فالبحث عن هذه الحوادث الظاهرة الى حدٍ بعيد انما هو درس انفعالاتنا او الحوادث التي فينا · واحسنت كل الاحسان بقولك في احدى رسائلك السابقـة ان كل آراء العلوم الطبيعية تابع لعلم النفس فلِمَ تميل الى بعض العلماء البسيخولوجيين المحدثين الذين اختلقوا

بسيخولوجيا سموها بسيخولوجيا الخلايا اوالبسيخولوجيا الطبيعية اساسها نسبة كل اعمال النفس وحوادثها الى الدقائق المادية العضوية واحتقروا الملاحظة الداخلية وعدوها اسلوباً عتيقاً لا يصلح استعماله في هذا العصر

ولك ان تسألني اليوم بلا ادنى تردد عن حقيقة الملاحظة الخارجية وعن انه هل ما يعرف بها شيء غير الحس والفكر وعن انها هل هي خارجنا او داخلنا · وانه لا احد ينكر انها داخلنا · وانـه لا نعرف خارجنا الا بها · قلت لك انه يبحث عن عمل الروح بالملاحظة الداخلية والادراك · واتكلم هنا عَلَى الملاحظة الداخلية واترك الكلام عَلَى الادراك الى وقت آخر · فاني اريد اولاً ان اثبت لك مميزات النفس الاولى او الاساسات الجوهريـة واقنعك بها ثم ابين لك عملها الأدبي وعملها العقلي · وسترى ان اسمى صفات النفس واقوى محركات عملها النطق الذي به يتوصل الى الاقيسة المنطقية بالاستقراء او بالاستدلال وانه عَلَى هذين الركنين اي الملاحظة والنطق يقوم علم النفس فضلاً عن سائر الطرق العلمية · فمن المضحك قول الماديين ان البسيخولوجيا لم يبق لها من نفع وانه يجب ان توضع في المشهد التاريخي كالآلات العادية التي لا فائدة منها · ولا وسيلة انا الى تحصيل العلم سوى الملاحظة وقوة النطق · وكل الحوادث الخارجية انما نعرفها بما ينشأ فينا ·

فقد ابنت لك ايها العزيز طريقة العمل الروحي وناموسه وكيفية

البحث عن ذلك العمل ومصيره موضوعاً علمياً · فهل تسلم بذلك

الرسالة الحادية عشرة

من إغجانيوس الى فيلوثيوس

ايها الاستاذ المحترم انه لولا كلمة بل حكم في رسالتك الاخيرة ما كان يصعب عليّ التسليم بكل ما كتبته اليّ فيها · وهذا الحكم اقلقني كثيراً فاضطررت به ان اسألك زيادة الايضاح · قلت انما طريق البحث عما يتعلق بالنفس الملاحظة الداخلية والعقل وان هذين الركنين يبنى عليهما كل علم فأنا اسلم بذلك

وقلت ان عمل النفس اي القوة التي فينا غير عمل القوى المادية وهذا اسلم به ايضاً فان قوى الطبيعة من الجاذبية والمقاومة والحركة ومصادمة الدقائق المادية لا تشعر ولا تعقل ولا تتذكر ولا تحكم ولا تؤلف قياساً منطقياً ولا تتخيل · ولكنك زدت عَلَى ذلك قولك ان ناموس المادة الاضطرار وناموس الروح الاختيار (الذي كثيراً ما يعبر عنه بالحرية) ان الحرية لكلمة جميلة وانا احبها واكاد اعبدها · انه قتل في سبيلها كثيرون ونشأت بها مآثر الشجاعة وتمجدت بها الشعوب وتقدم المجتمع الانساني · ولكن هل لك يا استاذي المحترم ان تبين لي كيف توفق بين هذا الاختيار والاضطرار السائد كل شيء · أوَ

يمكن وجود الاختيار والعالم كله تسوسه نواميس عامة لا تتغير . وكيف يمكن الانسان ان يخرج وحده من دائرة هذه النواميس . اوليس الاختيار والناموس عَلَى طرفي نقيض . وليس من الطبيعيين من يقول بالاختيار

وقد قرأت بالامس كتاباً في الفلسفة الادبية لمؤلف انكليزي قال فيه ان ما يسمى اختياراً او حرية ادبية صار بعد منذ عهد بعيد من الاراء العتيقة او الاراء التي علاها الصدأ التي اعرض العلماء عن البحث عنها . وقد ابطلتها الحجج الوافرة حتى لا تمكن اعادتها وستبقى طللاً او اثراً في تاريخ العلم يشهد بجهل الاولين الذين سلموا به عن غير اختبار . وهذا حق لا ريب فيه . والا فكيف يمكن ان نكون مختارين وكل ما نعمله انما نعمله لسبب من الاسباب . عَلَى ان العمل بلا سبب لا يستلزم انه عمل اختياري . وان العمل بلا سبب محال وان كان في الوجود يؤثر بالذات ومن الذات وله حركة ذاتية وليس له من اساس ولا مقصد ولا قانون فهو لا علاقة له بالعالم . والاختيار المطلق غير المحدود من خواص كائن غير محدود اسمى من العالم . وهذا الكائن ليس من العالم ولا ممن يعيشون فيه من اسرى الاضطرار ان هذا الاختيار نتصوره ونشتهيه ولكننا لا نحصل عليه ويستحيل ان نحصل عليه بمقتضى العلم . فهل لك من اعتراض عَلَى هذا ؟ لا اظن أوَ ما كان القدماء يقولون ان الآلهة انفسهم خاضعون للاضطرار . أوَ

لم تكن الهة القدر التي لا تتعطف ولا تعطف قائمة فوق كل آلهة اولمبس · أسرع بالجواب لان الذي يظهر لي ان مسئلة الاختيار أهم من كل ما خضنا فيه من المسائل منذ بداءة المناظرة الى الان

اسلم بان فينا نفساً وان لها عملاً خاصاً وان البحث عن هذا العمل يقوم بالوجدان او الشعور الذاتي المعقول منطقياً لكن القول باختيار النفس لا اسلم به · واذا كان ليس لها من اختيار كهذا كما اعتقد لم يبقَ من اختلاف بين القوتين العقلية والادية وسائر القوى الطبيعية قلت واقول لا انكر ان القوة الباطنة المعروفة بالوجدان لا ريبَ فيها وهي منشأ العالم الذهني وبها نعرف ما في انفسنا ولكنها قوة تعمل في المادة وبالمادة · واذا كانت كذلك فلا سبيل الى ان ننسب اليها اختياراً ليس لقوة من قوى العالمين

اني لعاجز ان افهم هـذا الحكم ولا استطيع إدراكه ولا تصوره بوجه من الوجوه

الرسالة الثانية عشرة

من فيلوثيوس الى إفجانيوس

اصبتَ ايها العزيز إفجانيوس بان حسبتَ مسئلة الحرية (اي الاختيار) اهم المسائل منذ بدء بحثنا الى الان لانه لو لم توجد الحرية

لم يوجد الانسان فلم تكن انت ولم أكن انا

وما احسن قول المؤرخ المجيد ميخاليتوس المتوفى حديثًا في هذا الشان . فانه كان يقول كلما سمع هذه التعاليم المؤدية الى اليأس : باي حجة يريد اولئك المعلمون ان يختلسوا انانيتي : وكان هذا الحكيم الدئِب النشيط مرآة الحرية العقلية . فكان حليف العمل والاجتهاد مع صغر جحمه وضعفه . وكان لا يفتأ يتفكر ويتصور عَلَى توالي الساعات وما كان يكف عن العمل الا حين يمنعه المرض وكانت عيناه تدلان عَلَى ما له من حسن العواطف وقوة التصور والتخيل وعلى ما في ذهنه من الصور الجلية وعلى ما يؤيدها من جميل السيرة وصالح الاعمال . ولم يتفرد في هذا بل كان له امثال ساعدوا باعمالهم العقلية على توسيع دائرة العلم وتهذيب الناس التهذيب الكامل بالعلوم والصناعات وكانوا يشعرون بان لهم حرية عقلية ويعترفون بمقاومة قوة الروح لقوة المادة وانهم بظفر الروح يتمكنون من احكام الجهاد الاعظم جهاد العلم والفضيلة الذي قد اعدوا انفسهم له . اني عرفت كتاب المؤلف الانكليزي الذي ذكرته لي في رسالتك الاخيرة في شأن الاداب وعرفت كثيرًا من امثاله لغيره من المؤلفين وسبقهم مؤلف فرنساوي في القرن الماضي ألف كتابًا عنوانه : الانسان آلة : وسبق هذا اخر الى موضوعه

واذا راجعت حلقات سلسلة القرون الى القرن الاول للفلسفة اليونانية وجدت اول ظهور هذه التعاليم في مذهب ذيموقراطيس الذي

ذهب الى اثبات الجوهر الفرد الذي قال به ماديو عصرنا واعترفوا بان ذيمقراطيس جدهم وموءسس فلسفتهم · فالمذهب المادي ليس بمذهب حديث كما ادعيت بل هو ضلال قديم جداً كغيره من الضلالات التي نشأت في خاليات العصور · والنقائص والشرور البشرية تتردد بانفسها بصور جديدة ووسائل وادلة جديدة واهنة للمتأملين فتصدم الصخرة الواحدة صخرة الوجدان او الشعور البشري · ان الطبيعة البشرية هي هي على اختلاف احوالها وكذا آراؤها · فقد يسود هذا غيره ثم يسوده غيره على مقتضى اطوار الفلاسفة المتعددين ومشاربهم وسيبقى تردد العقل البشري بين الطرفين زماناً طويلاً والله يعلم متى نهاية ذلك · وها ابين لك ما طرأ على العلوم العقلية والطبيعية من الآراء والمذاهب

ان الانسان ينظر في اول الامر الى نفسه ويتأمل في امورها ويشعر انه بمقتضى نتائج ذلك يجب ان يدبر نفسه بنفسه وان يعيش ويسير بحسبها · والا فكيف يمكنه ان لا يطبق عليها كل ما يرى انه حق ووسيلة الى النجاة فيجعل نفسه هدفاً لسهام الخطر العظيم بجهله نفسه او نبذه بعض الحقائق التي لا يتمكن من تطبيقها فعلاً على حياته بترك اللذات والاهواء والشهوات · ويكون عكس ذلك في الطبيعيات فان الانسان في علم الطبيعة يبحث عن خارج عنه اي عن شيء غير نفسه له علاقة به وتاثير كما قال القدماء لكنه لا يمكنه ان

يعتبره نفسه شيئاً واحداً فلا يكترث بنتائج هذا البحث اذ لا يرى
له فيها مصلحة ولا هوى ولا ان يرتب احوال وجوده عليها · ولكن
المسئلة المستمرة هل الانسان في الواقع آلة تتحرك بالاضطرار بقوة
خارجية او هو متحرك بذاته بمقتضى ارادته ومداركه · وترجع المسئلة
الى انه اقوة مادية الانانية كسائر القوى المادية بلا وجود مستقل
ملازمة المادة وقائمة بها كالثقل والجذب والحرارة ام كائن خاص مستقل
او قائم بنفسه مرتبط بمادة الجسم بلا عبودية له · والثاني هو الحق
والا فليس من انانية ولا انسانية

وانت تعلم ايها العزيز ان هذه المسئلة لا تحل الا بالوجدان او
التأمل الباطن او الملاحظة الداخلية · والحق اني لا ادري كيف آتي
بك الى هذه الملاحظة ولا كيف اعبر عن وجود الكائن القائم بنفسه
فينا وعن عمله على القول بانه يتحرك بالاضطرار اي ان غيره يلجئه
الى الحركة · ولو سلمنا بصحة المذهب المادي فكيف نعبر عن عملنا
العقلي والادبي لاننا على هذا التسليم لا نستطيع ان نجعل الانانية علة
عملنا العقلي والادبي لان الانانية على ذلك القول لم يبقَ لها من اثر
ولم يبقَ سوى دقائق متحركة · وان حواسنا ومداركنا وارادتنا ليست
سوى خواص تلك الدقائق واعمالها · فاني على راي الماديين اذا قصدت
ان القي نفسي في البحر لاخلص من اوشك ان يغرق وجب ان لا أحكم
ان آتي ذلك بعاطفة المحبة الانسانية ولكن وجب ان احكم بان دقيقة

من دقائق المادة الدماغية التي تقيم بها هذه العاطفة غلبت غيرها من الدقائق التي تقيم بها عاطفة ايثار الذات وانه بهذه الغلبة تتحرك الاعصاب والعضلات ويجري الجسم ويغوص في البحر "لان الادراك والارادة على قولهم ليست الا مصادمة الدقائق وان نتيجة هذا الصدام هي العمل . فهل يستطيع احد ان يخترع لنا لسانا يعبر عن هذه الامور . ومع ذلك يقول الماديون مثل هذا القول صريحاً وهي اقوال لا محل لها من الصحة وانها لمن المضحكات . ولا توضح شيئاً من الحوادث الانسانية بل تنافي شهادة الوجدان العامة كل المنافاة

لو فرضت ان الملاحظة الداخلية يستحيل وجودها واننا لا نعلم علم اليقين الطريقة التي بها تصدر الاعمال العقلية والادبية ورغبت في ان تعلم كيف تنشأ لا بوجداننا بل بالملاحظة الخارجية للنتائج وبظواهرها والاستقراء افليس اول ما يستدعي انتباهنا هو التعبير عن هذه الظواهر باللغة بلا ادنى تكلف وهل يستطيع الطبيب او الفسيولوجي ان يعرف ما يحدث لنا بسوى التعبير عنه وبالاسئلة والاجوبة . اذا لم تشأ ان تسال نفسك عن اسباب اعمالك فاسال غيرك ممن يحسبون انهم فاعلون من تلقاء انفسهم فلست تجد من مجيب بان تلك الاسباب امور خارجية الا اذ حاول ان يتخلص من العقاب على ما ارتكب من المحظورات نكن ما له ان يقول حينئذٍ الا ما معناه ان الهوى اعماه واستولى عليه فلم يستطع ان يدفعه . اي انه لا ينفي اختياره المعروف بالحرية بل

يحتج بان ذلك الاختيار لم يقوَ عَلَى تسكين ما هاج من هواه وشهوة قلبه الرديئة . فكل شعر تمثيلي وكل استنطاق وتقرير مبني عَلَى ان الانسان مختار او حر فهو مكلف ومسوءول عن اعماله . وكل من التوسل والتهديد والمدح والذم والانتقام ومعرفة الجميل والاهلية وعدمها قائم عَلَى ذلك الاساس . فان كان الانسان آلة مضطرة وجب ان يخترع لغة جديدة وانسانية جديدة وآداباً وسجايا جديدة وسنناً جديدة ونظماً جديدة وموءلفات جديدة واشعاراً وصناعات جديدة وما تكون هذه كلها عَلَى فرض الاضطرار المطلق . فليس من عقل يقدر ان يتصور ذلك ولا لغة بشرية يستطاع بها التعبير عنه

فانظر ايها العزيز ان المسئلة المبحوث عنها بالملاحظة الخارجية لا تحل بفرض الاضطرار والقول به لا يوضح شيئاً بل الحوادث نفسها تبطله . ولكنك قلت كيف يمكن القول بان اعمالنا الادبية بالاختيار او الحرية مع ان لا عمل بلا سبب او غاية . فهنا مسئلتان . إثبات الاختيار او الحرية وان الاسباب والغايات لا تنفيها . والجواب عَلَى هاتين المسئلتين ليس بالعسير . فمسئلة وجود الحرية او عدمها مسئلة عملية لا نظرية وذاتية لا معنوية . انما هي امر واقع وشيء ظاهر ويجب ان تحل بالنظر الى النتائج لا الى المقدمات وبالملاحظة لا بالفروض . انك حين تقول كيف يمكننا ان نوفق بين الاختيار والاضطرار السائد في كل العالم تخطىء منطقياً وتقع في السفسطة التي هي فرض المسئلة

انها حلت او اثبتت بالبرهان مع انها ليست كذلك • وهذا ما يسميه المناطقة بطلب الشيء من مبدإه او اعتباره ثابتاً او محلولاً والواجب ان يبحث فيها عَلَى ما هي عليه لتثبت او تبطل • ولو صح ان الاضطرار سائد في كل محل في العالم لم يكن من اختيار او حرية لانهما لا يجتمعان • وكانت الحرية لفظاً بلا معنى او صورة خيالية وصدق القائلون ان الحرية خطأ نظري وليست من الواقعات • فالمسئلة هنا هل يعم الاضطرار كل العالم او يرافقه اختيار اوحرية واذا كان الاختيار يرافق الاضطرار فلا بد من سبيل الى التوفيق بينهما • ولكن المسئلة عند الماديين اجريت عَلَى طريق غير حسنة فخلت بمجرد الفرض (والغرض) وضلال نُفاة الاختيار نشأ كغيره من سائر الضلالات الفلسفية في انه على غير النهج القويم الملائم للمباحث الطبيعية • فالطبيعيون نفوا قوة الاختيار او حرية النفس لانهم لم يجدوا في علمهم الا قوى مضطرة • فقولهم ان الاضطرار سائد في الطبيعة حق لكن في غير العاقل • فالمسئلة هي هل يسود الاضطرار الانسان وجواب ذلك شهادة الوجدان اذ ليس لنا في هذه الظلمة سوى نور

أما سلمت ايها العزيز ان ما فينا لا يكشف بسوى الوجدان او الادراك الباطن او الملاحظة الداخلية • او لم تقل انت نفسك ان درس ظواهر الطبيعة يغلب ان يكون تابعاً لعلم النفس لان معظم هذه الظواهر داخلي لا كالخارجيات المشاهدة ونعرف تلك الظواهر وندرسها

بواسطة الوجدان . فما هي شهادة الوجدان في مسئلتنا فهنا لا حاجة الى المجهر (المعروف بالمكرسكوب) ولا البركار ولا الزيج ولا المطمار ولا البواتق ولا الاكوار التي تحتاج اليها في الماديات . فقل لي هل تشعر عند إعمال الفكر وقياس الاسباب الباعثة الى العمل او المانعة منه بشيء من الاضطرار او ما يجبر ارادتك او تعلم علم اليقين انك كنت حراً مختاراً قبل العمل وبعده ان تعمل على هذا الاسلوب او ذاك . وان كل ما عملته انما عملته لانك اردته مختاراً بلا ادنى اجبار . لا ريب في انك تعرف ذلك من نفسك ووجدانك وتميز انك عملته طوعاً لا كرهاً . ويؤيد ذلك انه اذا كان عملك صالحاً يستحسنه الناس ويمدحونه لم تحتمل ان ينسب الى غيرك ويبين بالاضطرار وان يعتبر نتيجة ضرورية لصدام الدقائق المادية وحينئذٍ لا تحتج بالاضطرار الا حين يوجب عملك عليك اللوم او العقاب . وبهذا تسر وتستريح نفسك لانك عملت بما اضطررت وذلك الاعتقاد لذة عظيمة وسعادة لا تنزع منك . ولكنك باعتقاد الاختيار تحزن وتسخط عَلَى نفسك لعملك انك كنت قادراً ان تفعل غير ما فعلت . واذا كان ما قررته من الحوادث الواقعة فلست ادري كيف بوضح الواقع ويؤكد باكثر من ذلك

ان معرفة الاختيار او حرية الارادة بالوجدان او الملاحظة الداخلية بالغـة من القوة حداً تقاوم عنده الاجبار وتدفعه وتبقى بعده وتقاوم

الجسد لانك اذا اجبرت عَلَى عملٍ بتعرض جسمك لقوة تلجئه فتسوده علمت حالاً بانك فعلت ما لا تريد وانك لولا الاجبار ما فعلت . واني لآمل ايها العزيز انه لم يبقَ بعد هذا البيان في نفسك من شك في انك حر مختار . ولعلك لا تأمن الشك بعد هذا لصعوبة التوفيق في بادىء الامر بين اختيار الروح واضطرار المادة فاصغَ الى وجيز ما اقول . ان اختيارنا غير مطلق ولا غير محدود . بل هو محدود ونسبي ومحصور من عدة وجوه . وما حان ان ابين كيف يقيده الناموس الادبي الذي يجب ان يجري بمقتضاه لان ذلك سيكون ختام بحثنا عما يتعلق بالنفس وبالله . ويكفي هنا ان ينظر في انه كيف يتقيد بالاضطرار المادي وكيف التوفيق بينهما

ان نواميس المادة عامة ثابتة تقوم باعمالها في كل مكان وتعمل ابداً على سنن واحد . وما اجمل كون العالمين باسرها خاضعة بلا انحراف البتة لناموس واحد . وما الانسان على الارض . ان هو الا شروى ذرة دقيقة . وما الارض التي نحن عليها ونسكن قشرتها الرقيقة ونشغل اصغر اقسامها . ما هي سوى ذرة هباء بالنسبة الى الاجرام التي نكتشفها بالمرقب المعروف في مصطلح الفلكيين الغربيين بالتلسكوب والاجرام التي عرف علماء الهيئة ابعادها ومساحاتها وحركاتها . ومن هذه الذرة التي تدق عن الابصار من الكواكب البعدى ونحن نسميها عالمًا يدرس الانسان نواميس كل الكائنات ويتقدم ابداً في المعرفة . وهو فوق

ذلك يسود قوة العالمين وينتفع بها · فيتولد من ذلك العلوم والصناعات والفنون الجميلة التي يقوم التمدن باستخدامها على وجه المناسبة في الحاجات الاجتماعية فيضاف بذلك الى عالم الطبيعة عالم الاعمال البشرية وهذا العالم هو انشاء الاختيار او حرية الارادة الانسانية بلا جدال · فاستقرئ كل فرد من افراد العالم الانساني والخص عن اموره وعن عناصره في كل مظهر من مظاهره في الهيئة الاجتماعية وفي التاريخ وفي كل مكان لتتجلى لك علامات الحرية التي أنشأت تلك الاعمال واحيتها وساستها وغيرتها وتغيرها ابداً · فلا حياة الفرد ولا حياة المجتمع ولا حياة الجنس البشري التاريخية تظهر في عالم الوجود بمقتضى ناموس الاضطرار المادي الذي لا يتغير

نعم في كل مكان اضطرار لكن في كل مكان اختيار · والا فما نفع التعليم الادبي وكيف يحدث الارشاد ويتحقق تقدم الانسانية · ان الانسان لا يمكنه ان يبطل نواميس الطبيعة لكنه يمكنه ان يبطل حياته على الارض · ولو اتفق الناس على العقائد الموقعة في اليأس والمذاهب الضلالية المحدثة لأهلكوا انفسهم اي انتحروا ولم يبقَ احد منهم على وجه الارض · لكن العالم سيبقي متحركاً كما هو عليه بقواه نفسها ونواميسه عينها انما يكون فرق واحد وهو ان لا يكون فيه مدارك انسانية تدرك اعماله ومن ثم لا يكون من نور ولا لون ولا صوت ولا رائحة ولا طعم ولا حرارة ولا عقل يبحث عن اسرار نواميسه · فلا يبقى

الا الدقائق المتحركة ونشوء حوادث جديدة لما لا يوجد من الحاجات العالم بلا الانسان يبقى مجموع دقائق تتحرك اضطراراً كما هو مع تاثير الانسان فيه والانسان لا يقدر ان يزيد دقيقة واحدة على مادة العالم ولا ان يعدم دقيقة واحدة منها ولا يستطيع ان يبطل شريعة من شرائعها ولا ان يغيرها · فان قيل ماذا يستطيع ان يعمل قلنا انه يستطيع ان يدرس حوادث العالم ويكشف نواميسه ويستخدمها لنفع نفسه وهذا عمل اختيار · وعلى هذا يوفق بين الاختيار واضطرار المادة ان الطبيعة تبسط امام اعيننا محاسن عظمتها ولكن نواميسها لا تخرق ولا تغير · كيف توجهت في الارض ترى فيها اشجار مثمرة فاذا جنيت اثمار هذه او تلك لتغذيتك لم تبطل نواميس توليدها ونموها · والغذاء يكون بمقتضى نواميس الجسد المادية الاضطرارية على منهاج ما تتولد الشجرة وتنمو وتموت بمقتضي نواميس الحياة النباتية · لكن اذا قطعت الشجرة او احرقت بطل عمل النواميس النباتية اضطراراً ويبتدىء عمل آخر لنواميس اخرى وهي نواميس المادة غير العضوية وهلم جراً

فهل فكرت قط ايها العزيز في حقيقة الحركة الطبيعية · انها تحوُّل اجزائها او قرب بعضها من بعض او بعدها عنه · فيجب ان تتأمل في هذا لانك به تتوصل الى الاتفاق بين اختيار الانسان واضطرار المادة · ان اجزاء المادة تتحرك ابداً · وبهذه الحركة تمكن مداخلة كل من الاضطرار والاختيار في بعض امور الآخر · وهذه الحركة

هي الباعث السري لاعمال العالم المختلفة على انواعها وهذا الباعث هو علة حريتنا وحين نستعمل هذه العلة بمقتضى حكم العقل والعلم الذي نستنبطه كما سنبينه في وقت آخر نعمل بنفع في الطبيعة ولا نغير نواميسها ولا قواها ٠لكننا نحركها ونغير مكانها ونحولها الى سبيل النفع الخاص وعلى هذا النهج يتغير وجه الارض وتتبدل وحشة البرية بالانس اذ تصير مسكناً مبهجاً للانسان والاختيار الذي ينشىء العمل الادبي يتأيد في الامور الخارجية بتاثيره في الطبيعة فانه يغير مظاهر الطبيعة بالصناعات ويستولي على الماديات فتنشأ الملكية المقدسة التي يقبح التعدي عليها كالحرية وهي شاهدة له وناشئة عنه وهذا الاختيار هو الحرية الادبية وهذه الحرية نفسها تصير باتصالها بما هو خارج الانسان الحرية المدنية والسياسية ٠ ولا يمكن وجود الحرية في الشرائع والنظم ما لم تسبقها حرية الافراد وعلى هذا يجب اما ان نلغي هذه الكلمة وننسى المعنى الذي نعبر عنه بها ونسلم بانه ليس من حقوق مدنيـة ولا من حقوق سياسية شريفة لا يجوز اغتصابها ٠ وان ارادة المشترع الاستبدادية يمكنها ان تغير وتبطل كل شيء ٠ واذا سلمنا ان لهذه الارادة حدوداً لا تجاوز وانها هي التي تصون اعمال الانسان النظامية وجب ان نعترف ان ذلك العمل نتاج الحرية الداخلية الشريفة التي لا تتعدى

ولهذا كان ايها العزيز انكار حرية الروح علة الاعتداء على سائر الحريات وتشويه معنى العدالة وتبديل العدل او ابداله بالمصلحة الذاتية

اي اقامة المنفعة الخاصة مقام العدل والمصادمة الوحشية للاغراض النفسانية وتقوية الاستبداد من الاعلى او من الادنى وتحكيمه في الهيئة الاجتماعية والمدنية . ويكون عكس ذلك اذا سلمنا بان لكل منا الاختيار او هذه الحرية الادبية نفسها فنقدر ان نعلم ان كلاً من هذه الحريات نظامي كغيره وان الاحترام المتبادل لهذه الحريات هو العدالة وهي الشرط الاسامي الذي لا بد منه ليعيش البشر بسلام وهناء ومن هذا يمكنك ان نتوصل الى الاصول المتعلقة بالحقوق ونثبتها بالادلة الرياضية والبراهين المنطقية وقد آن هنا ان آخذ في ازالة ريبك وهو ما في قولك كيف يمكن الاختيار وكل ما نعمله انما نعمله بعقل والعمل بدون عقل لا يدرك والحق ان هذا اقوى الاعتراضات على الاختيار . وكثيراً ما اتى به الماديون اثباتاً لعموم الاضطرار قالوا : حين نفكر في عمل يقوم في انفسنا تضارب في الاقوال المختلفة والبواعث المتباينة في الافراد او المتعددات كالتضارب بين هوى وواجب او بين الاهواء المختلفة والواجبات وبين النفع الخاص والعدالة وبين خوف شر ورجاء خير وعرف هذا التضارب كل انسان بالاختبار ومثلته الاشعار والروايات فكثيراً ما نسبح في لجة الافكار او نغوص فيها حتى يغلب احد الاسباب المتضاربة سائرها فيجري العمل بحسبه

فاين الاختيار في ذلك وهل من اختيار في الاعمال التي تجري علَى طريقة ميكانيكية لعادة قديمة جداً او لرد فعل التاثيرات الخارجية

أوَ لا يمكن ان ينطوي اكثر اعمالنا تحت هذا الضابط او يعد من
تلك الاعمال الاضطراريه · ويكررون هذه الادلة عَلَى اساليب مختلفة
وينشرونها بطرق حسنة الظاهر · وقد يجاوز بعضهم هذا الحد فيقول
ان تقرير الاختيار يستلزم ان نعرف كل ما في العالم من البواعث
والحركات والافعال لاننا يمكن ان نخدع عَلَى اننا ونحن نعتقد إنا احرار
او ذوو اختيار يمكن ان لا نكون كذلك لسبب سري لا نشعر به ولا
بد من هذا السبب والا بقي عملنا منقطعاً بلا سوابق ولا علاقة له
بسائر الاعمال البشرية اي يكون قائماً بنفسه لا علاقة له بغيره وقد
وجد لذاته اختيارياً وله السلطان من ذاته وهذا لا يفهم فضلاً عن
كونه لا يمكن ان يوجد · واذا فرضنا ان الوجدان يشهد لنا بالاختيار
فهو يخدعنا · فالاختيار خداع الوجدان · فقد رايت ايها العزيز اني
لا اهرب من هذا البحث ولا من اقوى براهينك واني لآمل ان هذه
القوة تعلن في كل البلاد حقيقتها فتسهل تفنيدها

فلنأخذ في البيان من القول الآخر اي الاقوى فنقول · اذا كان
وجداننا يخدعنا في ما يتعلق بالاختيار فلماذا نصدقه في غيره وكيف
نشرع في علم من العلوم اذا نبذت الحوادث التي يشهد بها الوجدان
واعتبرت انها باطلة او لا تصدق · وما الذي يمكننا ان نعرفه بدون
الوجدان · أفلا نعرف بما هو خارج عنا بما فينا من الحس الباطن ·
أوَ لا يهيأ كل بحث يتعلق بالانسان وبالعالم الظاهر بعمل باطن

نشعر به شعوراً جلياً . وان الوجدان يشهد بوجود الخارجيات نفسها .
وهل تستطاع معرفة شيء من الخارجيات الا بمقابلة بعض الانفعالات
او التأثرات ببعض وبالتميز بينها وبين الاعمال التي تنشأ فينا . وبذلك
نستنتج عقلاً انه لا بد من سبب خارجي للاشياء التي ليست فينا
وانه يوجد إزاء وجداننا شيء هو غير الوجدان اي العالم الخارجي
او المحسوس . ان شهادة الوجدان لا تتجزأ ويبقى تأثيرها واحداً ابداً
ويمكن ان تخدعنا الشهادة احياناً فنكشف الخداع بالوجدان نفسه وندفعه
واذا كان علينا ان نعرف كل اسباب الحركة العامة وتأثيرها قبل ان
نقبل شهادة الوجدان بالاختيار كانت تلك المعرفة حينئذ ضرورية
للتسليم بكل من الحوادث الاخرى التي يشهد الوجدان بها . اعني
انه يجب التسليم بان الحركة الكلية لله . او ان لا نصدق وجودنا .
ويجب ان نميز الاعمال الميكانيكية التي تنشأ عن العادة او عن ردّ فعل
التأثيرات الخارجية . وهذه الاعمال محققة الوجود وليس احد ينكرها

اما الاولى فليست الا تكرار اعمال قصدناها واتيناها بالاختيار واجبرنا
اعصاب الحركة علَى القيام بها فاذا عاد السبب السبق نفسه كررتها
الاعصاب بلا محرك جديد لانها اعدت لهذا العمل كآلة اعدت للحركة
فتكررها كلما تكرر المحرك . ومن النواميس المشتركة بين العقل والمادة
علَى السواء ان التكرار يسهل العمل . وهذا العمل يصير بطول المزاولة
كانه ينشأ لذاته حتى كأن لا علاقة للاختيار به . لكن الاختيار أتاه

في اول امره فأمر الاعصاب مرة نخضعت له دائماً . ودليل ذلك اننا نقدر ان نمنعه وان لا نكرره اذا شئنا

واما الثانية اي الاعمال التي تنشأ عن رد فعل التاثيرات الخارجية فهي ايضاً من الحوادث الواقعة التي لا جدال فيها وتحققها تجارب لا تحصى . فضغط العصب ينشيء حساً ينتقل الى مركز ينتهي اليه ويتعلق به . وهناك ينشأ رد فعل يحدث الحركة بعصب اخر بالانعكاس بلا مداخلة الاختيار . ومن هذا القبيل معظم الاعمال الغريزية كإغماض العين بوقوع النور عليها بغتة وامثال ذلك كثيرة وهي مما يبحث عنه في الفسيولوجيا وليس من منكر لها . فهذه الاعمال تحدث اضطراراً وان استطاعت قوة الارادة احياناً ان تضعفها . وهنا نصل الى المسئلة الثانية وهي هل كل الاعمال ولا سيما الادبية تنشأ عن انعكاس او اضطرار . ويجب هنا ان نعرف هل الاسباب التي نعمل لاجلها شيئاً مما يجبرنا عَلَى العمل فنأتيه اضطراراً او هل العمل الادبي اختياري ولو كان لسبب . يسوؤني الاطناب في رسالتي ولكن لا مفر منه فانك بالحاح بلا صبر تريد ان تصل الى العقدة المركزية في المسئلة . والصعوبة من جهة اخرى وهي انه يجب ان تضع نصب عينيك مجموع البراهين التي تثبت المسئلة او تبطلها لكي تعتمد احد الامرين . وكيف يمكنك هذا الاعتماد وانت لست بمختار عَلَى قولك او قول الماديين . فهذا من ضروب المحال عَلَى ما يظهر . فما الذي تعتمده أكونك مختاراً ام كونك

مضطراً وكيف تميز بين الامرين ٠ انك حين تفكر في عمل من الاعمال تدري كل ما شرحته لك وتقابله بالحوادث الناشئة فيك عند التفكير فاذا كانت تلك الحوادث عَلَى وفق ما وصفته لك وصور ذلك الوصف الواقع عَلَى حقيقته اعترفت بانك مختار والا فلك ان تقول انك مضطر ٠ ولو لا اعتقادي اخلاصك لزدت على ذلك قولي انك عندما يظهر لك الاختيار يخشى ان تقول بنفيه عن عنادٍ او إباء او اطوار شاذة او غير ذلك من الاغراض

فقل لي ايها العزيز اين الاضطرار في هذا البحث ٠ والمقابلة والحكم واعلان الرأي في هذا لا تصير الا بان تريد وكما تريد ٠ واذا آثرت هذا على ذلك فهل تشعر باضطرار او بما يغصب ارادتك غصباً مادياً فان المادة مضطرة ولا فاصل بينهما وبين الاضطرار ٠ اوَ لا تشعر بعكس ذلك اي بانك مختار اختياراً تاماً او انك حر الافكار كذلك وما العلاقة بين التاثير الناشيء عن هذا السبب او عن ذاك في ارادتك والناشيء عن تاثير قوة اعلى في قوة ادنى ٠ فالعلاقة بين الارادة والسبب المحرك لها هي علاقة تصويرية او هي علاقة عقلية بين الصور الذهنية من كل وجه ولا علاقة لها بالاختيار الذي يربط بعض الدقائق المادية ببعض بواسطة تاثير بعضها ببعض

فاذا قلنا ان فينا بواعث متقاومة وان الاقوى ينشيء العمل كان ذلك من باب المجاز لا باب الحقيقة اي اننا ننقل ما في العالم الظاهر

الى العالم الباطن بلا موجب ولا ملجىء · وليس في ناموس من نواميس
المادة او العالم الخارجي يستولي على العالم الداخلي ولا ضابط له من
الضوابط الرياضية ولا الاختيار الخارجي ولا محققات العلوم الطبيعية ·
ويبرهن بكل سهولة ان المحركات لنا على اعمالنا ناشىء عن مجرد التصورات
العقلية لا عن شيء من الامور المادية · ولا انكر ان داخلنا محركات
مادية عَلَى درجة محدودة كهيجان الهوى ولكن متى اخذنا نفكر ونقدر
قبل العمل الاسباب التي تحمل عليه او تنهي عنه اي عندما نعمل
كبشر لا كبهائم فحينئذٍ تتمثل لنا الصور العقلية الكثيرة المختلفة الانواع
التي تمثل في الوجدان باستحضار الذاكرة إياها وربطها بعضها ببعض
بالقرائن ورسمها إياها في الخيال واستدعاء احداها على اثر الاخرى
انتباهنا · وحينئذٍ ننبذ بعضها ونبقي الاخر للبحث ونقابل بعض الصور
ببعض ونقدرها ونمحصها الى ان ننتخب السبب الافضل ونقبله ونعمل
بمقتضاه ولكن هذا السبب لا قوة له على اجبار ارادتنا لاننا في ذلك
الوقت عينه نفضله ونقرره ونعمل بموجبه ونعرف باننا قادرون على نبذه
وعمل غير ما يقتضيه اي اننا حين نقبل السبب الاحسن نشعر ايضاً
باختيارنا على ان قبولنا اياه هو الاختيار عينه · نعم ان الفوز كان
للسبب الافضل لاننا نحن فضلناه باختيارنا لا على رغم ارادتنا · فارادتنا
خضعت له اختياراً

ولو استطعت تحليل الاسباب المتعددة هنا اي في هذه الرسالة

لبرهنت لك ان اكثر هذه الاسباب نشأ عن الاختيار السابق لها على انك ستعرف ذلك في درس البسيخولوجيا خير معرفة على احسن سبيل واكمل نظام · وقد آن اختم رسالتي وانتظر جوابك

الرسالة الثالثة عشرة

من إفجانيوس الى فيلوثيوس

اشكرك ايها الاستاذ الفاضل وافر الشكر على صبرك الذي اوضحت لي به بالبراهين الاختيار او حرية الارادة وهي حجج قاطعة الى حد ما تركت لي عنده من اعتراض · وقد عرفت منها قيمة تلك الحرية التي هي من خير آلاء الله على البشر كما قال دانت اذ نصير بها على صورة الله كما قال تعالى حين شاء خلقنا · وقد عرفت بما شرحت لماذا كان الاختيار حقاً شريفاً للفرد والمجتمع الانساني وكيف كان ذلك · وتيقنت انه بدون الاختيار ينتفي الوجدان

ولكن ائذن لي في ان اسألك هذا السؤال وهو هل يكون وجداننا حجة على غيرنا او هل يمكننا ان نحج غيرنا بوجداننا وهل ما نراه من انفسنا يراه سائر الناس من انفسهم · ان الوجدان ذو اعتبار بالنسبة الينا ولا يمكن ان يكون كذلك بالنسبة الى سوانا · ان الحقائق الطبيعية اذا اقيم عليها البرهان سلم بها الطلبة جميعاً لقدرتهم على تحققها

ولذلك كانت تلك الحقائق حجة علمية وهي حقائق عند كل من وقف
على ادلتها · وكيف تعتبر كذلك الملاحظات البسيخولوجية وما نكتشفه
نحن في انفسنا · ربما لم يرَ غير الفيلسوف في وجدانه ما يراه الفيلسوف
في نفسه ولهذا نفى الكثيرون القول بامكان ان ينشأ العلم الحق بالوجدان
او بالملاحظة الداخلية · وبهذا لا تعتمد المباحث والاحكام البسيخولوجية
ويستحيل تعميمها باسلوب علمي لان الانسن صار على التوالي الى ما
هو عليه اليوم وبنيته المعهودة اليوم منتهى تغيرات سلفت فكانت ادنى
منها الان كما رأى علماء العصر الطبيعيون · فانهم وجدوا اول هيئة
عضوية في خلية حية تكاد تخفى على الابصار موءلفة من مادة سموها
البروتوبلازما وزعموا ان من هذه الجرثومة الاولى بلغت البنية البشرية
ما هي عليه اليوم بالتغيرات المتوالية حتى صارت بنية الانسان من اكمل
البنى واذا كانت النفس لا تفارق البنية نمت بنموها وارتقت بارتقائها
فكانت نفسي ونفسك تختلفان عن نفس الانسان الاول الذي انبأنا به
التاريخ وبالاولى انهما تختلفان اكثر من ذلك عن نفوس الاجداد الذين
كانوا قبل عصر التاريخ اي الذين كانوا قبل آدم وآثارهم في طبقات
الكرة الارضية المختلفة · واذا كانت سلسلة هذه التراكيب لا تنقطع
لزم من ذلك ان لأدنى الحيوانات نفوساً ذوات اختيار او حرية الارادة
والاختلاف بينهما وبيننا انما هو في الدرجة والرقي لا في الحقيقة · واذا
كان ذلك هو الواقع فاين السموّ الذي نعتبر به ونباهي · واين تكون

منزلة التحقيق العلمي الذي تتكلف بيانه بافراغ المجهود بالملاحظات البسيخولوجيـة بعد مناظرات اكل الدهر عليها وشرب ونسجت عليها عناكب القدم . ان عصر الانسان بالنسبة الى تاريخ العالم كله ليس سوى برهة قصيرة . واي شيء في التاريخ حياة احد الناس ولو كان اعظم البسيخولوجيين . انها اقل من ذرة من ذرات الهباء

ولا اظنك تنكر هذه الحقائق واني لفي ريب ايها الاستاذ الفاضل من ان يوافق هذا كل ما علمتني اياه من اول الامر الى الآن

الرسالة الرابعة عشرة

من فيلوثيوس الى إفجانيوس

ايها العزيز إفجانيوس . ان رسالتك وجيزة لكنها تتضمن ثلاث مسائل ذات شان . وهي مرسومة على صفحات ذاكرتك تحاول بها اقامة الحجة على الاختيار بعد تسليمك به فضلاً عن منافاتها لكل مبحث من مباحث الفلسفة العقلية الناشئة عن الوجدان او الملاحظة الداخلية على اني كنت آملاً انك اقتنعت بما برهنت لك على ان الطريق الوحيدة التي بها نعرف ما فينا واكثر ما في الخارج هي تلك الملاحظة . ومن ثم كان العلم المستنبط بها شرعياً وحقاً يقيناً لكن هذا البرهان لم يكفك

والمسئلة الاولى من مسائلك الثلاث هي · انه كيف نعرف ان كل ما نلاحظه في انفسنا او داخلنا يلاحظه غيرنا في نفسه او داخله (وخلاصة ذلك هل يكون وجداننا حجة عَلَى وجدان سوانا) واذا كنا لا نعرفه فكيف نحقق رفع ملاحظتنا الشخصية الى درجة سامية من العلم · لا ريب ان هذه المسئلة ذات بال وتستحق عظيم الانتباه ولكن حلها يستلزم الدخول في باب الاحكام المنطقية التي لم يوضحها لك استاذك في علم المنطق والحق اننا لا نستطيع ان نعلم ما في اذهان غيرنا او ندركه رأساً فإنا نجهل ابداً هل ينشيء اللون الاحمر في سوانا الشعور الذي ينشئه فينا عينه او ينشيء شعوراً غيره · لكن هذه المسئلة لا تهمنا في هذا البحث ويكفينا ان نتفاهم باستعمال الكلمات نفسها لبيان المعاني عينها مهما كان الشعور الباطن الذي يؤثر في كل منا بواسطة المشاعر · فسواء أكان الشعور الواحد نفسه في الكل ام لم يكن كذلك فالمسئلة التي نحن فيها ليست من هـذا الوادي · فانها اعم من ذلك وسترى انها تدخل في كل علم · افنقدر ان نستخرج من الملاحظة الشخصية داخلية او خارجية صوراً كليـة ؟ اليست هذه مسئلتنا · افلم تقف عَلَى تحليلها في كتب المنطق · فهل تستنبط العلوم بطريق سوى الملاحظة بواسطة التجريد والتعميم وهذا العمل العقلي يسمى في المنطق بالاستقراء · ولكن الصورة الحاصلة بالاستقراء اشد الصور ابهاماً وظلاماً · ويتطرق الى الاحكام بها الشك كثيراً · ولعلهم لم يشرحوا

لك ماهية هذا العمل فانا اوضحه لك

في اول هذا البيان يجب ان تعلم يقيناً ان اكثر تصوراتنا كلية اعني تصورات تشتمل عَلَى افراد كثيرة . مثال ذلك الانسان . فانه يشمل عَلَى كل افراد البشر ويصدق عَلَى كل منها . واذا عرفنا الانسان بالحيوان الناطق صدق ذلك عَلَى كل من تلك الافراد . واذا حللنا الحيوان والناطق الى العناصر التي تالف منها كان لنا أن الانسان لانه حيوان هو ذو جهاز (اي بنية) خاص واعضاء مختلفة لكل منها علاقة بالاخر يتشكل بواسطتها ذلك الجهاز (او تلك البنية) ويصان وينمو الى الحد (المعين له) ثم يضعف بالتدريج ويموت وينحل الى العناصر التي تألف منها وهذا كله يصدق عَلَى كل فرد من افراد الانسان وانه لكونه ناطقاً يبحث عن طبائع الكائنات واسبابها وغاياتها اي يحاول ان يعلم كيف هي وكيف اتت ولماذا وجدت . وبذلك يكتشف نواميس الطبيعة ويستنبط العلوم ويخترع الصنائع للانتفاع بها . وهذه كلها تصدق عَلَى كل فرد من افراد البشر . وما علة هذا الا ان الصفات العامة التي نجردها عقلياً ونجعل منها الاجناس والانواع ليست من اختراع عقولنا بل هي في الطبيعة حقيقةً فعليه ثبت ان في الطبيعة ما هو علَى وفق النطق السليم تترتب به الكائنات اجناساً وانواعاً وافراداً وهذا ليس مجرد صور ذهنية بل هو في الافراد انفسها فان لها صفات عامة ذهنية نفرزها بالتجريد ونشكل منها الاجناس والانواع التي نتصورها

تشكلها فينا وهي تنطبق على الطبيعة وتصدق على كل الافراد التي تحتها . وحين ننسب صفات الجنس الى الانواع او صفات الانواع الى الافراد لما بينهما من الصفة المشتركة يتم العمل المنطقي المعروف بالقياس

فاذا كنت تعلمت في المنطق قواعد القياس المستقيم وانه يتركب من ثلاث قضايا (ثالثها النتيجة وما قبله المقدمتان على مصطلح الاورويين ومن قضيتين هما المقدمتان يلزم عنهما قضية اخرى هي النتيجة على مصطلح الشرقيين وثلاث حدود يسمى احدهما الحد الاوسط لانه يربط الحدين الاخرين (الحد الاصغر والحد الاكبر) ويسميان الطرفين ونعبر عنها بهذه الاحرف ا.ب.ج فالالف الحد الاصغر والباء الحد الاوسط والجيم الحد الاكبر) فالحدّ ب هو الصفة المشتركة بين الاول والثالث (اي الاكبر والاصغر) ولذا سمي الحد الاوسط والالف والجيم هما الطرفان ولنا من ذلك (كل ا ب وكل ب ج فكل ا ج . وترسم هكذا) ا—ب—ج ∴ ا—ج فافرض ان ا هي الجنس او النوع و ب المميز المشترك الذي بواسطته ج يصدق على ا اي الجنس او النوع فاذاً كل ما يصدق على ج يصدق على ا (وعلى كل فرد من افراد ا) ولا اطيل الكلام على ذلك لاني فرضت انك تعلمت هذه المسئلة المنطقية وانك لا تجهل ان هذا الدليل الذي تنتقل فيه من الكليات الى الجزئيات يسمى قياساً (وحجة) وبرهاناً ويسميه المحدثون قياساً استنتاجياً :

لكن يوجد غير هذا الاستدلال إستدلال آخر وهو عكس هذا في إنا نتقدم فيه من الجزئيات الى الكليات ويسمى استقراء . وطريقته ان نقول مثلاً الحيوانات ا ب ج د الخ لها الصفة الفلانية فاذن كل الحيوانات لها تلك الصفة ولكن لا يكون الاستدلال به كاملاً تعتمد نتيجته ما لم نعرف ان تلك الصفة لكل حيوان لا للحيوانات ا ب ج د فقط ولا يكون الاستدلال حينئذٍ الا تكرار المعنى . فالحق ان الاستدلال الاستقرائي ناقص ابداً لاننا لا نستطيع من الاشياء القليلة ان نستنتج منطقياً شيئاً متعلقاً بالكل ومع ذلك ان الاستقراء اقوى آلة للاكتشافات العلمية . وبه نعرف كل ما نستطيع معرفته من طبيعة الكائنات . وكيفية ذلك اننا نرى الاجناس والانواع في الطبيعة منتشرة في الافراد وممتازة بصفات فردية . فنرى في سقراط مثلاً الصفات الفردية الحكمة والفضيلة والتقوى التي امتاز بها عن كثيرين لكن فيه صفات عامة كالنطق والحيوانية فهما يعمان كل الناس لان كل فرد يدخل تحت جنس وينطوي فيه والامور الطبيعية كلها كذلك فقطعة الحديد تدخل في نوع الحديد والحديد ينطوي في جنس هو المعدني وهذا ينطوي تحت جنس اعم منه هو غير العضوي وهكذا الخ . وحين نبحث عن شيء او شيئين او اشياء من الطبيعيات كالبحث عن بعض قطع الحديد نكتشف بتوالي الملاحظات والتجارب خواص جديدة

فمن الواضح ان عملنا وان كان منحصراً في بعض الافراد انما هو

اشتغال بالنوع الذي تتدرج فيه تلك القطع التي هي امثلة له · وحين نكتشف فيها صفـة جديدة نضيف الى الجنس شيئاً جديداً ويمكننا حينئذٍ ان ننسب هذا الشيء الى كل الافراد المندرجة فيه بواسطة القياس الاستنتاجي بلا ادنى خطإٍ فعلى هذا يكون الاستقراء ممهداً السبيل الى الاستنتاج · وهذا حقيقة الاستقراء الصحيح · فالاستنتاج يتم الاستقراء ويحوله قياساً كاملاً وبرهاناً قاطعاً · وهذا لا نعمله دائماً لكن نعلم اننا نقدر ان نعمله وانه يصدق ابداً · فكلمة الاستقراء ذات المعاني الكثيرة دليل على ما نحن في صدده لاننا به نتتبع او نعد امثلـة نوع من الانواع وبعمل منطقي نضيف صفات جديدة الى معنى النوع ووضع باكون قوانين لهذا العمل المنطقي في كتابه المسمى الآلة الجديدة : وتممه ميل في منطقه الذي يمكنك به ان تعرف تكوّن الملاحظات والتجارب او الاعمال لاكتشاف الصفات الجديدة · وبذلك تعلم ان كل المعارف التي نتوصل اليها بالاستقراء يقينيـة كالتي نتوصل اليها بالقياس الاستنتاجي ويظهر في بادىء الامر ان الاستقراء ضد القياس كما كان أرسطوطاليس يقول · ولكن يتبين بعد التامل ان الاستقراء والقياس في المؤدّى شيء واحد

فاذا قابلنا ما قلناه بمسئلتنا انجلت من ذاتها · فانه بملاحظة امورنا الداخلية وبملاحظة كثيرين غيرنا في ازمنة مختلفة واحوال متعددة باستفراغ المجهود وبلا هوى نتحقق ان فينا امراً داخلياً او قوة باطنـة

في الوجدان ونتيجة هذا العمل اننا نضيف صفة جديدة الى نوعنا ونسب هذه الصفة الى كل الافراد التي يشتمل عليها، الى كل انسان آمنين كل خطإ ٠ واليك بيان تاليف الآراء البسيخولوجية بالاستقراء النظامي وبيان كونها عامة ويقينيـة كآراء العلوم الطبيعية حتى المنطق نفسه ٠ او ليس هو اسلوبـاً ومثالاً باهراً يدل علَى عموم المبادىء البسيخولوجية وكونها يقينية ٠ ان أرسطوطاليس لم يخترع قوانين المنطق انما اكتشفها عقله بالملاحظة الداخلية ٠ ومن انكر عليه تلك القوانين ومن يمكنه ان ينكرها من علماء المنطق منذ زمانـة الى هذا اليوم ٠ اليست تلك القوانين اسمى من المبادىء الرياضية عينها بالنظر الى التعميم والتحقيق والتدقيق على ان تلك المبادىء لا تثبت الا بالقوانين او الادلة المنطقية فلماذا لا نعتقد انه بهذه الطريق نفسها يمكن ان نكتشف نواميس العقل الاخرى

فقد رايت ايها العزيز ان ما نتيقنه بالملاحظة الداخلية يمكننا ان نبلغه غيرنا وانهم لا بد من ان يجدوه في نفوسهم كما نجده في نفوسنا ما لم يخرجوا عن الطبيعة البشرية الى ما هو دونها ٠ وان الفلسفة العقليـة علم حق كالعلوم الطبيعة ٠ وبهذا حلت المسئلة التي عرضتها علي وسأحل لك الثانية في الرسالة الآتية

الرسالة الخامسة عشرة

من فيلوثيوس الى إجانيوس

المسئلة الثانية تتعلق بتولد النوع الانساني · قلت ان علم البسيخولوجيا الذي في عصرنا يظهر انه غير يقيني وانه لا يمكن تعميمه على منهج علمي لان الانسان صار الى الهيئة التي هو عليها اليوم تدريجاً وان بنيته في عصرنا آخر نتاج ما سبقها من التغيرات التي كانت فيها الانسانية قبل ان توالت ووصلت الى هنا في ادنى الاحوال · واذا كانت النفس غير منفصلة عن الجسد وتنمو بنموه وترتقي بالنسبة اليه لزم ان النفس تقدمت تدريجاً فنفوسنا اليوم ليست كنفوس اسلافنا الاقدمين الذين كانوا قبل عصر التاريخ · فاذن وجب ان لا يكون اساس البسيخولوجيا الملاحظة الداخلية او التأمل الباطن بل درس نموها التاريخي وهذا يقتضي ان يشمل هذا العلم نفوس الحيوانات من ادناها الى القرد الشبيه بالانسان الذي يحسب من نسله (او انه والقرد صنوان اي فرعان من اصل واحد هو ذلك القرد الشبيه بالانسان) اما هذه هي دعواك

اني رابت من هذا انك مطلع على مذهب دروين لكني اشك في انك درسته درساً كاملاً بل طالعته كثيراً او درست كل ما رد

به على هذا المذهب او الرأي بل الفرض لانك لا تجهل بان مذهب
دروين فرض لا حقيقة اثبتت بالادلة القاطعة كما اعترف دروين نفسه
بذلك . فاذا قابلت باحكام ما مع هذا بما هو عليه ربما وصلت الى
النتيجة التي وصلت انا اليها . وهى ان هذا الفرض عار من البراهين
التي تنزله منزلة العلوم الطبيعية او تجعله حقيقة مسلماً بها . (واليك
ما رآه دروين) . ان هذا الطبيعي البارع راى بالانتخاب الصناعي
وتربية النباتات والحيوانات انها تتغير وتتولد عنها صنوف مختلفة من
جهة اللون والحجم ونمو بعض الاعضاء وتقهقر الآخر . وان هذه
التباينات تنتشر في الافراد التي تتولد منها . وراى ان ذلك الانتخاب
يكون احياناً في الطبيعة ولرغبته في ايضاح تولد الانواع المختلفة فرض
عموم التغيرات التي شاهدها ورفعها الى درجة الناموس العام للطبيعة .
وفسر التغيرات بتنازع البقاء بين الحيوانات القوية والضعيفة لبقاء الاقوى
بانتقاء جنس الذكر او الانثى الذي يتنازع بـه الذكور الاناث وبتاثير
البيئة او الاحوال التي سميت بالوسط الذي فيـه تنمو بعض الاعضاء
نمواً ممتازاً وتتقهقر الاخرى او تتلاشى

وعلى هذا السنن يعتاد الحيوان الاحوال الخارجية التي تعيش فيها
ولذلك ترى ان بعض الاعضاء مفقود لعدم ما يقتضيـه من الاعمال
التي تقوم به او يقوم بها فان حاجه العمل (الذي يسميه الفسيولوجيون
بالوظيفة) تولد العضو وتكمله وان التغير الحادث من هذه التاثيرات يوجب

كونه تدريجياً بالنشوء والارتقاء وترتيب سلم الكائنات اي شجرتها النسبية . وزعم دروين انه من البنية الناقصة الى الغاية او التي تكاد تكون غير منظورة ومما اكتشفه في اعماق الاوقيانوس انه منه نشأت كل البنى الباقية . واستدل عَلَى ذلك بما شاهده في كثير من البهائم والانسان نفسه اعضاء لا نفع لها انما هي باقية شاهدة بما حدث من التغير . ولما رأى الانقطاع في سلسلة الكائنات ولا سيما سلسلة القرد والانسان فرض وجوب انه موجود حلقات متوسطة لم تكشف الى الان

ولما كان هذا النشوء يستلزم زماناً طويلاً جداً لم يبخل الدروينيون بالدهور ولكنهم لم يبرهنوا عَلَى تعيين تلك الدهور أمئات هي ام الوف تقضت مع تقضي ما سلف من عمر الارض لانها ابتدأت في زمن واحد بلا مراء اذ فصلت الارض عن جرم آخر سماوي كما برهن في علم الفلك ومن مادة سديمية كانت منذ البدء وقد كُشفت بحركة دورية وتعرضت لتغيرات كثيرة كما اثبت علم الجيولوجيا . وقالوا ان الانسان نشأ من حيوان دنيء بان حدث منه اعلى منه ومن هذا اعلى كذلك وهلم جراً . وان ذلك تبين بدرس صفاته الطبيعية فضلاً عن صفاته العقلية والادبية بدليل وجود الشعور في الحيوانات المختلفة وكذا الارادة والاختيار والذكر والتخيل والاستدلال والمحبة والبغض والحسد ومعرفة الجميل وان لعدة منها هيئة اجتماعية ورئاسات وصناعات ومهناً . وعلى الجملة ان فيها كل الصفات الانسانية ولكنها في البهائم عَلَى درجة

ادنى منها في الانسان وهذا ظاهر لا جدال فيه • وتوسع بعضهم بهذا
القرض العام للنشوء بالبحث عن حياة النوع البشري من جهة العقل
والادب والاجتماع والتاريخ • ووجدوا ان الاقوى يسود الاضعف في
التصورات والانفعالات والانتخاب وتنازع البقاء او جهاد الحياة وفي
مراعاة الاحوال والمجاراة بحسبها والنمو في النجاح بواسطة كل ذلك وكمال
الهيئة الاجتماعية وكل النوع الانساني حتى ان البسيخولوجيا والمنطق
والبلاغة وعلم الادب والسياسة وفلسفة التاريخ ليست سوى بعض
نتائج التاريخ الطبيعي • فلذلك لا أرى من عجب اذا كان هذا الفرض
البديع الذي اتاه القوم بهذه الجسارة قد دُهش به خيالك وراق
لمتخيلتك او اذا كان حكمك عَلَى العلوم الادبية شمل الحرية

عَلَى اني اسالك ايها العزيز ان تصبر قليلاً فترى ان المذهب
الدرويني لا يبطل الفلسفة العقلية لانها حية وتحيا ابداً واساسها الحقيقة
والحق ان مذهب دروين مهما كان في الظاهر ولاح لبعض العلماء انه
قائم عَلَى أسس منطقية فاكثرهم لم يسلموا به وما هو الا فرض اي
تخمين لا يمكن ان يؤيد بشيء من الواقعات فانه الى هذه الساعة
متزعزع اذ لم يشاهد احد من علماء الارض حتى الدروينيين انفسهم
تنوع شيء من الافراد (اي خروج فرد من نوعه ومصيره نوعاً مستقلاً)
نعم يمكننا ان نحصل عَلَى صنوف عديدة (كما يسميه الاوروبيون
بالتباينات) بواسطة الانتخاب الصناعي وتحسين الحيوانات والنباتات

وطريق العيش الذي نجبرها عليه وبدرجة الحرارة الصناعية وتغير الاقليم وبغير هذه من الاحوال الخارجية · ولكننا لا ننظر ولا نتوقع ان نرى تنوع الافراد او خروج فرد من نوعه وتسلسل نوع آخر منه لان النواميس الطبيعية تنافي ذلك وتثبت بقاء الافراد عَلَى حقائق انواعها حتى انها بعد طروء العرضيات تعود الى احوالها القديمة وكيف نفرض ان مجرد الاحوال الخارجية ينشيء هذا العجب · ان تنازع البقاء الذي يبقى به الاقوى لا ريب فيه · ولكن لا ينشأ عن ذلك سوى التحسين اي تقوية النوع لكن لا يخرج به الفرد عن نوعه ان ينتقل بـه نوع الى آخر (فان ذلك خرق للنواميس الطبيعية) ونسلم ان ائتلاف الكائنات في البيئة او الوسط الذي هي فيه ينمي بعض الاعضاء ويضعف الآخر · وسواء أكانت الحاجة هي المولدة للاعضاء ام كانت تلك الاعضاء أُعدت للعمل الذي تقوم به · فكيف يمكن بذلك ان تتغير حقيقة النوع كله فضلاً عن تغير حقيقة العضو عَلَى حين ان ذلك يولد مجموعاً قائماً بنفسه كل قسم منه يشبه الاخر · وكلها وسائط وغايات بعضها لبعض وكلها تشترك في المقصد العام الذي تقوم به البنية ما لم ننسب الى العرضيات الناشئة عن احوال خارجية عناية ننفيها عن الله تعالى (عن ذلك علواً كبيراً)

نعم ان المشابهة بين بنية بعض البهائم والانسان لا ريب فيها · وان في كل اعضاء لا منفعة لها ولا نعرف سببها والقصد منها · لكن

باي حق نعتبر علاقة المشابهة بمثابة علاقة التوليد · (ومتى كانت المشابهـة دليلاً عَلَى وحدة الاصل) وكم وكم من الاشياء في الطبيعة التي نوجب مع جهلنا القصد منها بقوة النطق ان لا بد من مقاصد بها · اما التوفيق بين مذهب درو ين وما يعهد من الانسان واعماله فمرفوض لانه منافٍ للواقعات المتيقنة · والعلامة هيكل الفسيولوجي مع تسليمه بآراء درو ين وفروضه قال · ان الاختلافات التشريحية التي بين الانسان والغوريلا هي اقل من التي بينه وبين القرود السافلة عنه · لكن توجد هوّة عظيمة لا يمكن ان تملأ بين ارق البهائم والانسان · فهنالك بهائم عاشت مع الانسان في عصور التاريخ القديمة والعصور التي قبل التاريخ ولم تزل الى اليوم وهي باقية على ما كانت عليه · مع ان الانسان تقدم وارتقى في سلم الكمال · مهما كان متوحشاً في اول امره فلا بد من انه كانت فيه بذور التقدم الذي صار اليه · والا فكيف انشأ اللغة التي تقدمت لو لم يكن له قوة على تنويع الاصوات الطبيعية لايضاح الافكار الكثيرة المختلفة · فما هي لغة البهائم واين هي · وكيف استطاع كشف نواميس الطبيعة وساد قواها وحسنها للنفع والطرب ان لم تكن له قوة على ذلك · وهذه القوة بعيدة عن كل بهائم الارض كما لا يحتاج الى بيان · واين مكتشفات البهائم · وهل تقابل غرائز اعلى البهائم بفكر واحد من افكار البشر

إخترع الانسان ما حسنة وكمله بواسطة قوى الاستنباط · ومن

يجسر من العقلاء على ان يقول ان للبهائم صناعات جميلة · والبون بعيد جداً بين الانسان والبهائم في الادبيات · نعم ان لبعض البهائم ولا سيما العائشة مع الانسان شيئاً من الصفات الادبية لكنها تنحصر في دائرة حياة كل منها ولكنها لا ترتقي لان لا آراء لها ترتفع كآراء الانسان واي بهيمة خطر لها وجوب الاخاء وحب الوطن وبذل النفس طوعاً في سبيل الواجبات او افتكرت في معنى الواجب نفسه · فاذا كانت البهائم لا تفهم الحقيقة ولا الجمال ولا الصلاح فكيف يمكن ان ترتقي الى معرفة خالقها غير المحدود صانع الكل · ومن اغرب المضحكات ان ننسب الى البهائم عواطف التقى

ويتعذر عليّ ايها العزيز اغاثيوس ان اورد لك كل ما يستند اليه الدروينيون في نسبتهم الى البهائم كل الصفات الادبية والعقلية التي يمتاز بها الانسان لكنك اذا تاملت فيها بانتباه واخلاص اقتنعت بانها غرائز ولا تنفسر بغير ذلك وتشبيهها بالصفات البشرية تساهل · ضع واحدة من العنكبوت في قنينة ترَها اخذت في نسج بيتها الذي هو شبكتها · ومن الواضح انه لا يمكنها هنالك ان تصيد شيئاً واستقرِ بيوت القندس اي كلب الماء ترَها كلها على رسم واحد · وتغريد الطيور جميل لكنه كله على نغمٍ واحدٍ ابداً · ان بعض البهائم يحاكي الانسان في بعض اعماله لكن ذلك يتم بتأثير الانسان فيه بمقتضى ناموس الغريزة كما يؤثر في العالم الطبيعي بمقتضى النواميس الطبيعية · قابل

جماعات البهائم بجماعات البشر وانظر هل اكتشف قط في شيء من جماعات البهائم معنى الحق والانصاف او هل استنارت جماعة منها او تمدنت او اتسعت معارفها وارتقت كما عهد من الجماعات الانسانية . وهل من تاريخ للبهائم . وهل ينطبق ناموس النشوء الدرويني على التاريخ البشري كما حاول بعضهم : فما اعظم التباين بينهما وما اوضح بطلان ذلك الانطباق . ان النشوء يكون عن اضطرار والطبيعة تتغير في ادوار طويلة . وذلك التغير يضبط ضبطاً رياضياً ويدخل تحت الحسابات الرياضية فيمكننا ان نحدده قبل حدوثه . ولكن النشوء في التاريخ البشري لا يكون عن اضطرار وانما يكون بواسطة العقل اي بواسطة النطق والاختيار وناموس ذلك النشوء . وهو تقدم الحقيقة والجمال والصلاح الى ما لا غاية له . واذا جرت الشعوب على ذلك الناموس نجحت وكملت واذا طرحته فسدت او تلاشت كما حدث احياناً

فاين الشعوب الشرقية التي ارتقت قديماً . ولماذا اينعت العلوم والصناعات والحرية في بلاد اليونان الى حد لم تصل اليه غير مرة ولماذا انحطت بعد ذلك . ولماذا تلاشت الامبراطورية الرومانية وتسلطت شعوب حديثة على اوروبا . ولماذا سادت الظلمة الكثيفة في القرون الوسطى ثم تلاها النور ولماذا تقدمت المدنية واخذت ترتقي على التوالي وان كانت العوائق تعترضها احياناً فتتأخر ثم تحارب العوائق وتتقدم . فالجواب على هذه الاسئلة لا تجده في الانتخاب ولا في احوال البيئة

او الوسط ولا في تنازع البقاء ولا في غير ذلك من نواميس التغير الدرويني ولكنك تجده في مبادىء وآراء تستخرج من علم الفلسفة العقلية والفلسفة المادية

واسمح لي هنا ان انبهك على امر واحد يبين استحالة عدم انطباق الآراء او الفروض الدروينية على الامور البشرية وذلك عندنا وامام اعيننا على توالي الاوقات وما هو الا تاريخنا الحاضر · انه حسب نامرس النشوء يقع التغير اضطراراً بالتدريج والترقي فبعضها يسبق بعضاً اضطراراً والآخر يتلوه كذلك ولا يستطيع احد ان يغير تاثير هذا الناموس او يمنع تقدمه وعلى هذا السنن كان نشوء الكرة الارضية من ظهور الحياة ونمو البنى العضوية وتغير صورها المتوالية · وعلى هذا الناموس حياتك الطبيعية وكل عضو من بنيتك فلا يمكنك ان تبلغ الشيخوخة دفعة ولا يمكنني بمقتضاه ان ارجع الى الشبيبة · وحياة الشعوب تتقدم بالتدريج على نهج اضطراري فلا يمكن شعباً ان يبلغ الدرجة العليا من النجاح ما لم ينتقل اليها من الدرجات الدنيا · ومع ذلك عهد ان بعض الشعوب بعد ان ازهر واينع ذبل كزهرة وفسد وكاد ينسى · وحمل مدة اربعة قرون نيراً ثقيلاً قاسياً جداً ومن الغرائب انه لم يتوحش · وهذا الشعب نهض باسم الايمان والوطن وحارب بشجاعة فاسترد حريته واخذ منذ ذلك العهد يسعى في سبيل نجاحه المادي ويوسع ثروته ويتخذ تمدن غيره من الشعوب · ولم يمر بالادوار

التي مرت بها · ولم يشعر قط بتأثير ناموس النشوء الدرويني الحديدي الذي لا يحول · فانه لما طرح نير العبودية وشعر بالحرية وخالط الشعوب الراقية اخذ عنهم المدنية والعلوم والصناعات والعلاقات والقوانين التي لم تكن في القرون الوسطى او ما يليها لما اخذه عنها سائر الشعوب لكنه اخذ ما كان في القرن التاسع عشر عينه فولد فيه ولادة جديدة فانظر كيف كان ذلك · فاين هنا ناموس النشوء وطرق اعماله المختلفة

افلم يتضح لك ايها العزيز ان ذلك كله نتاج الحرية لا اضطرار المادة · وان كل ما يصدق على تاريخ الشعوب يصدق على تاريخ الافراد · خذ ولد انسان غير متمدن وهذب عقله وقلبه تهذيباً حسناً بوسائل نافعة من العلوم اليقينية والتربية الصالحة والمعاشرات الطيبة المؤدية الى التمدن السامي يصر رجلاً مدنياً مهذباً من احسن المتمدنين المهذبين بدون ان يمر عليه ما مر على اولئك الشعوب من الاطوار المتوالية التي مرت على اسلافهم قبل ان يدركوا الكمال الذي اورثوه اعقابهم · وليس من ينكر ناموس الوراثة ونقله الى الخلف الصفات الفسيولوجية فضلاً عن الصفات العقلية والادبية · وان لم يتحقق ناموسها كما ينبغي وظهر فيها شواذات فجائية كثيرة كما شوهد احياناً فعسر تعليلها على العلماء · وهي من مباحث الفسيولوجيا والبسيخولوجيا · وليس من ينكر ان العقل يتغير ويتحول لانه قابل الكمال طبعاً اكثر من كل ما سواه في العالم اذ ليس لغيره ما له من الاختيار والنطق · ولذلك

صدق ان عقل الفيلسوف فوق عقل الأمي وعقل غير المهذب والابله فالتفاوت بين العقول كالتفاوت بين النباتات والبهائم . والتماثل التام معدوم حتى ان دقائق المادة التي عَلَى غاية الصغر والخفاء متباينة فالتفاوت في كل مكان من عالم الطبيعة ومع ذلك توجد الوحدة في كل مكان منه اذ لكل البرايا صفات جوهرية تتألف منها حقيقتها الخاصة وهذه الصفات تتقدم تقدماً مختلف الاقدار وتقدمها اما بتأثير اضطراري ناشىء عن نواميس المادة كما في العضويات والبهائم واما بتأثير الحرية العقلية كما يحدث في الانسان . عَلَى ان هذا النمو يقتضي سبق صفة طبيعية وجدت وانتشرت معه . وهذه الصفة لم تتغير حقيقتها بذلك النمو بل ظهرت ظهوراً بالفعل بعد ان كان بالقوة . ومتى تامل الفيلسوف في نفسه ودرس احوالها بالملاحظة الداخلية فيعرف احسن معرفة ويعلم اكمل علم حقيقة نفسه فضلاً عن علمه حقيقة غيره . ويرى فوق ذلك ما هو كل انسان وماذا يمكن ان يكون كل انسان . وقد علمت كيف تم هذه الملاحظات الشخصية بطريق الاستقراء القانوني وتوازر عَلَى تاليف علم الفلسفة العقلية

وقد بقي عليَّ المسئلة التي اشرت اليها في آخر رسالتك وهي ما يتعلق بنفس البهيمة وسأبين لك آرائي فيها في الرسالة التالية

الرسالة السادسة عشرة

من فيلوثيوس الى إجّانيوس

ايها العزيز اجّانيوس · ان درس الانسان ما يتعلق بنفسه لا يمنع البتة درس ما يتعلق بنفس غيره من الناس بالملاحظة الخارجية بالنسبة الى منازلهم المختلفة في الهيئة الاجتماعية وبالنسبة الى عصور التاريخ المتباينة · ولا درس ما يتعلق بنفوس البهائم يمكننا ان نتوصل اليها بظنون تنطبق عَلَى القواعد المنطقية

ان الفلسفة العقلية التي يبحث فيها عن احوال النفس بين الامم وتقابل فيها احوال العقول في الامم تساعدنا عَلى ان ندرك احوال نفسنا وايضاح افكارنا عَلى اقوم سبيل · وهي الذريعة التي يتخذها البسيخولوجيون · وقد علم بها ان الانسان في كل زمان وكل مكان هو كما نعهده محدود ضعيف لكنه ناطق مختار · فيقدر بهذا ان يرتقي الى اعلى درجة في الكمال العقلي والادبي وان يهبط الى ادنى دركة في الجهل والفساد · وكان هكذا في العصور الخالية وهكذا هو اليوم · فتمثله لك انباء التواريخ السالفة والقصص ولا سيما الروايات الشعرية والشعر عَلَى اختلاف مواضيعه الانسانية · فانه يصفه ويصف اهواءه واعماله ويبدي عيوبه ونقائصه المعهودة منه في يومنا وكذا ملائحه ·

وتبين لنا هذه الامور عينها الاشعار الهندية ومحزنات سوفكليس وشكسبير وروايات أرستوفانس وميلر المضحكة · وعَلَى هذا يبحث البسيخولوجي عن الانسان من الوجهة العقلية بنظره فيه وفي احواله في الهيئة الاجتماعية والتاريخ وفي اعماله ومكتوباته ومآثره وحياته البيتية وترقيه التاريخي عَلَى توالي درجاته

وعلى الجملة ان النفس تظهر حيث كانت وفي كل طريق بواسطة تاثيرها الخارجي · فليس من ادنى حاجة الى التسليم بآراء داروين في الانصباب على هذا الدرس الذي نقابله به بين الجماعات والافراد لان هذا البحث كان قبل ان يخلق داروين بزمان بعيد · وزاوله علماء الفلسفة مراراً لامتحان تعاليمهم الخاصة بالذات وبالواسطة · وزاوله الشعراء بغية التفنن وكتبة الروايات قصد التفلسف في احوال النفس وكتب موءخراً راسين احد الاساتذة البعيدي الصيت في فرنسا مقالات نفيسة في علم البسيخولوجيا · واتخذ آخر من المشاهير موضوع دروسه علم البسيخولوجيا بالنظر الى البحث عن القوى العقلية في الهيئة الاجتماعية ومن المحقق وجوب ان تكون الملاحظة الداخلية اساس ذلك العلم اي علم البسيخولوجيا الخاص

اما البحث عن مدارك البهائم فقد رغب فيه الفلاسفة قبل داروين وبحثوا عن نفس البهيمة · وصرح بعضهم ولا سيما تباع دي كارت او كارتاسيوس بان لا نفوس للبهائم وانها لا تشعر ولا تعقل ولا تتالم

وان الحركات والاعمال التي تعبر بها عن الانفعالات نتائج عمل ميكانيكي اي آلي كادوات بعض اللعب · لكن هذا المذهب بطل ولا يقبله عالم اليوم (الا الماديين) فالذين لا يسلمون بان النفس جوهر ناطق قائم بنفسه ويرون انها مجموع آلات فسيولوجية يجدون بالطبع تلك الآلات في البهائم ويرونها كالتي لنا لكنها في مقام ادنى منها · وبين هؤلاء كثيرون من تباع دروين او كلهم · ونحن نسلم بوجود النفس في الجسد وان النفس تفعل بواسطته لكننا لا نسلم بان النفس والجسد شيء واحد · ولنا في نفس البهيمة مسئلتان الاولى في نفسها · والثانية في اختلافها عن النفس الانسانية

اما الاولى فاقول فيها لا ريب عندي في ان للبهيمة نفساً اي مبدأ حركة بسيطة تفهم بها وتشعر وتتالم وتعمل · والملاحظة العقلية والبحث عن الاسباب الخفية بواسطة الظواهر مما يلجئنا الى التسليم بذلك انا نجهل كيف تدرك البهائم الاشياء الخارجة عنها فلا نقطع بان تاثيراتها في مشاعرنا يولد فيها مثل شعورنا بذلك التاثير كما لو نظر الى النور ولكن لا نشك في انها تشعر بذلك التاثير · وهذا الشعور يستلزم عملاً خاصاً ولو كان صغيراً جداً كرنين الجرس وذلك العمل الخاص هو الانتباه وهو ينشأ عن قوة مركزية ذات وحدة لان البهائم تحكم بين شعورين او اكثر وتوجه الى اشدها إبهاجاً وتفضله على الاخر وينشأ فيها بذلك ذكر كما ينشأ فينا فنحكم بان لها ذاكرة وحواس تشترك

مع الذاكرة . وهذا يستلزم الوحدة الباطنة . وتحد الذكريات بارتباط نجهل ناموسه لكننا لا ننفيه لانه من الواضح ان الواحد منها يستدعي تذكر الاخر . وهذا يقتضي وحدة النفس . وهل للبهائم افكار وصور معانٍ كلية . في ذلك شك وان سلم به بعضهم

نعم . انها تخدع بها غالباً ولكن اقامة البرهان عَلَى انها تنتزع بالصفات المتماثلة الاجناس والانواع من الافراد من العمل العقلي المعروف بالتجريد لان ذلك يقتضي قوة النطق التي خلت البهائم منها فهي لا تستطيع الاستدلال القياسي لانه لا يحصل الا بالاستنتاج والاستقراء ويبنى عليهما كما راينا في استنباط الاجناس والانواع واذا ظهر انها تستدل احياناً (فاستدلالها بواسطة الحس لا بالمجردات) فهو استدلال ناقص تنتقل بـه من جزئي الى جزئي فنتائجها جزئية . ولا يندر ان نرى استدلالها الظاهر الذي ليس هو الا تذكر انفعالات حسية وتأثرات غريزية . فلا يمكنني ان اقول قول الدرو ينيين واحكم احكامهم كأن انسب الى البهائم المتخيلة والمتصرفة لانها لا تثبت الا بان تثبت لها منطقاً وهو لا يمكن للبهائم ادراكه . ولا شيء من اعمالها يدل عَلَى ان لها منطقاً ولا تصوراً للفنون الجميلة وبالضرورة ان صفاتها الادبية كصفاتها الادراكية . والعواطف تابعـة للفكر . وما هي الا تجسم المعنى فذو الصور العقلية السامية هو ذو الشعور الشريف . فما هو شعور البهيمة ان اول شعور فيها هو الشعور بالانانية التي يقصد بها صون الفرد

فالبهائم تبذل دون انانيتها اولادها فتاكلها حفظاً لنفسها · وقد يظهر فيها عاطفة الشفقة على اولاد نوعها لكنها يغلب ان تكون نتيجة العادة والاضطرار ولم يظهر منها قط عاطفة الشفقة على الغريب الا اذا اضطرت الى مساكنته · والا فامرها عكس ذلك فبينها وبين الغريب نفور عظيم وحرب عوان حتى ترى الانقراض سنة عامة بين اكثر البهائم المختلفة الاجناس ولا سيما الحشرات فانها يهلك بعضها بعضاً الى حد بعيد · انه في دائرة ضيقة من دوائر حياتها الاهلية تظهر بعض الامارات الادبية مشابهة للبشر كالحنو الزوجي والوالدي ولكن ما لها من حنو ابوي ولا اخوي والعاطفة الوالدية التي تظهر في الام على اولادها لا تتجاوز مدة احتياج الاولاد اليها · وبعد ذلك تنساها · ويمكن ان يتزوج الذكر من البهائم عدة اناث لان تعدد الزوجات اتفاقاً من سنن البهائم الا قليلاً منها

والحق ان للبهائم محبة وبغض وفرح وحزن وغيرة وشكر وضرب من الكبرياء · وبعضها يحب الانسان ويدفع عنه حتى الموت لكن كل عواطفها الادبية تنحصر في الانانية كما تنحصر كل مدركاتها في المحسوسات لان للعاطفة علاقة بالانانية · والحياة الحسية على الاطلاق تنتج عاطفة اخرى نحو الانانية اي عاطفة الانانية هي اساس تجمع البهائم أسراباً اي جماعات ولا نرى فيها اثراً للحقوق العامة ولا نمواً في الترقي · فما ظاهر الترتيب في تلك الجماعات الا ائتلاف غرائز · والملوك والروساء فيها

هي كذلك لكنها انى واعظم وقوادها ورؤساء حربها هي كذلك لكنها اقوى وانما لم يظهر لنا في البهائم طبقات من العلماء والفلاسفة · والحق اني لا افهم علة جنون بعض الذين يدعون العلم في محاولتهم تنزيل الانسان من عظمة طبيعته الى منزلة البهائم من كل الوجوه · هذه هي نفس البهيمة · وهذا وافٍ بحل المسئلة الاولى

اما المسئلة الثانية فليس لنا مما نقوله فيها الا القليل · لان ما قلناه في المسئلة الاولى يكاد يكون حلاً لها كافياً · فان كل ما في الانسان من الزيادة على ما في البهيمة هو الفرق الذي بينهما وهذا الفرق هو كل ما يمتاز به الانسان عن سائر الحيوان

قد اجتهدنا في ان نعرف نفس البهيمة من ظواهر حياتها · وكما تقتضي الطريق المنطقية نسبنا اليها الخواص الادراكية والادبية التي ظهرت من اعمالها وحياتها ومثل هذه الصفات ثابتة للانسان فانه يشبه البهائم في البنية الجسدية لكن بنيته اكمل من وجوه ولنفسه فوق ذلك كله النطق · فقد اصاب ايها العزيز الذين ميزوا بالنطق الانسان عن سائر الحيوان · فان البهائم لا نطق لها ولهذا لا لغة لفظية لها اي نطق لفظي ينشأ عن النطق العقلي · فالنطق قوة الحية في الانسان تقوده الى غير المحدود · وبالنطق يصير الانسان الى المقام الاسمى لانه يدرك به علة كل الاشياء ويرتقي الى العقل الالهي · وبالنطق يكشف نواميس الطبيعة ويرتب العلوم ويخترع الفنون التي بها يستولي على

الطبيعة بالنطق · يتصور ترتيباً ونظاماً اسمى من ترتيب العالم وانتظامه وعلى وفق هذا الترتيب يستنبط معارف جديدة وينشيء بدائع الفنون الجميلة بواسطة المتخيلة والمتصرفة · بالنطق يقف الانسان على مبدإ وجوده وغايته ومقصده وعلى الناموس الدي يصل به الى الغاية من ايجاد العالمين · ويقف على الواجب الادبي او المفروض عليه من الايات وعلى الرابط الحقيقي الذي به ترتبط الهيئة الاجتماعية المؤلفة منه ومن امثاله · وعلى المبادىء التي تتوقف عليها هذه الهيئة الاجتماعيـة لكي يتم بها القصد من وجوده على الارض

فتأمل ايها العزيز اني قد ازلت كل شكوكك · وانك قد عرفت الان لماذا يستنبط بالملاحظة الداخلية علم محقق شامل الضوابط والقواعد كالعلوم الطبيعية لا دونها وعرفت ايضاً حقيقة المذهب الدروبني وان الفلسفة العقلية المبنية على المقابلة بين البشر والبهائم تساعدنا على ملاحظاتنا الشخصية الداخلية

الرسالة السابعة عشرة

من إجانيوس الى فيلوثيوس

استاذي الفاضل ما كنت اظن ان رسالتي ستكلفك مثل هذه المباحث الطويلة (التي تكرمت بارسالها) فأسألك العفو لاني سممتك

ما ليس قليلاً من التعب واشكرك على رغبتك في افادتي شكراً جزيلاً

وقد عرفت مما كتبت اليّ انه يمكن ان يعبر عن الضلال بكلمات قليلة ويقتضي تفنيده كلاماً كثيراً . وايقن انك توافقني على ان الكلام الطويل الذي اقتضته شكوكي كان في محله اذ اوضح لي بطلان امور كانت قد اعترتني مما بثه في ذهني رجال ذوو شان ومنزلة عالية في العلم كدروين وغيره . وقد بان لي من تاملي في ذلك ان ما قلته يبرهن حرية العقل فضلاً عن فوائد كثيرة في اثناء البيان في رسالتك لانه اذا كان عمل العقل ميكانيكياً وجب ان تكون كل احكامه صحيحة لان النواميس الميكانيكيـة لا تخطىء . واذا كانت نتائج ذلك العمل احكاماً متناقضة وجب الحكم بصدقها معاً وذلك باطل واذا كنا احراراً استطعنا ان نستعمل قوانا استعمالاً مستقيماً او ملتوياً فنصل الى حق او باطل . وهذا قد افادني حجة جديدة لتأييد الحرية لكنه مع ذلك ولّد فيّ شكاً جديداً

قلت لي مراراً كثيرة ان العقل يستخدم لمعرفة الحقيقـة وكررت هذه الكلمة كثيراً . واني لاذكر انك قلت ان الحرية والنطق هما كل الانسان . فقل لي ان شئت ايّ نطق يستخدم لمعرفة الحقيقة النطق الشخصي ام النطق العام . واذا كانت العقول الشخصية غير متفقـة فمن يكون حكماً بينها وكيف يثبت النطق العام وهل يكون سوى مجموع مناقضات . ثم ما النطق الذي نمتاز به عن البهائم . والذي في

آخر رسالتك ان النطق اللفظي نتاج النطق العقلي او الداخلي وكيف يلد الخارجي ألم يظهر لك انه يحق لي ان اوجه الى انظارك هذه الاسئلة • وانك انتَ نفسك طالما امليت عليّ هذه المسائل واعتنيت بان تبين لي حقيقة النفس

افما ترى يا مولاي انه من الطبع ان ارجو من فضلك ان تقول لي ما الصفة التي تمتاز بها نفس الانسان عن نفس الحيوان غير الناطق او البهيمة وتعلوها وترتقي بها الى اسمى درجات الكمال كما قلت ولقد اتعبت مولاي كثيراً ولكن تنازلكم ولطفكم السبب فما عليّ من جناح

الرسالة الثامنة عشرة

من فيلوثيوس الى إفجانيوس

ايها الحبيب لقد ادت رسالتك الوجيزة الى مسائل ذات شان فيجب ان احلها الحل التام لاتمام البحث عن النفس ان امكن • وقد احسنت الملاحظة لان معنى النفس يبقى ناقصاً دون تحليل التي نسميها نطقاً لان هذه اهم الصفات فنفس الانسان ناطقة وكل قواها واعمالها كذلك • وسأستفرغ المجهود في بيان النطق وان اقتضى ذلك تطويل المقالة • وسأشرح لك آرائي في هذا الشان جهد المستطيع انما ارجو منك زيادة الانتباه والملاحظة للتحقيق • واترك هنا الى حين شكوكك

في كون النطق هو هو بالذات في كل صفاته واحواله الثابتة · وفي النطق الشخصي والنطق الكلي وفي سلطته وتولد النطق اللفظي من النطق الداخلي · لان هذه المسائل ستحل بسهولة متي حللنا المسئلة الاولى! · ويسوؤني كون هذه الرسالة طويلة ولكن آمل انك لا تسأم وان تتبعني بالانتباه التام

إنا لما نطلب سبب امر من الامور فماذا نفعل · إنا نبحث عن علة ذلك الامر وظواهره مثل انه كيف وجد · ومن اين وجد · ولاي غاية وجد · اي نبحث عن الجوهر والسبب والغاية · وهذه وحدها هي صفات النطق او هي البحث عن الامور باسبابها لا سوى ذلك · واذا كانت النفس الانسانية ناطقة نبحث عن انها كيف اتت ومن اين اتت · ولماذا اتت · وربما البهائم طلبت ذلك ولكن ليس لها ما لنا من الوسائل الى البحث للوقوف عَلى المطلوب · فاننا اولاً نعتقد بقوة نطقنا ان الشيء الواحد نفسه لا يمكن بحد ذاته وبمقتضى الاحوال ذاتها ان يوجد وان لا يوجد · اي إنا نعتقد ان حقيقة كل كائن غير متغيرة الجوهر ولو تغيرت عَلَى توالي الازمنة هيئتها ولكنها هي هي لا سواها في البرهة التي نبحث فيها عنها · مثلاً يمكن ان تتحول احدى الاشجار الى مادة غير عضوية بموتها ثم بانحلال عناصرها ولكنها ما دامت شجرة لا بد ان يكون لها صفات الشجرة لا صفات غيرها · وهذا الأب بالنسبة الى علاقته باولاده لا يمكن ان يكون

أباً وابناً ولكن يكون ابناً بالنسبة الى علاقته بابيه · فالمثل الاول في هاتين العبارتين يراد به البحث عن الشيء في وقت واحد · والمثل الثاني يراد به البحث عن الاشياء بالنسبة الى هيئاتها المتعددة وعلاقاتها بغيرها من الكائنات

اذا بحثنا عن احد الكائنات في برهة واحدة ومن جهة واحدة بينها نجد انه هو هو ولا يمكن ان يكون وان لا يكون اعني بذلك الحكم باجتماع النقيضين وارتفاعهما · ولذلك تبقى الحقيقة واحدة · فحقيقتان مختلفتان في الشيء الواحد نفسه تناقض واجتماع النقيضين محال · ولا شك في ان معلمك الذي قرأت عليه المنطق علمك ان هذا المبدأ النطقي اولية وهو الحكم بامتناع اجتماع النقيضين · وهذا الحكم او الاولية تعتبر في كل برهان · والحق انه يمتنع كل قياس اذا لم تبق حدوده هي هي عينها غير متناقضة بحد ذاتها وبالنسبة الى علاقة بعضها ببعض · او يستحيل كل قياس تغيرت فيه تلك النسبة · واذا تناظرنا في امر وانتهت المناظرة نكون قد وصلنا الى ما لا شك فيه لانه يمتنع ان يكون فيه ما ليس فيه بالبديهة فتأمل · فالوصول الى الاولية التي هي امتناع اجتماع النقيضين هي قوة وتمام كل برهان

واذا تاملت في كل برهنته لك منذ اول البحث الى هنا ظهر لك ان هذا الحكم البديهي او الاولية اساس كل برهان لكن العقل يحكم بوجود اوليات اخر · فاننا نتيقن ان كل موجود لا يمكن ان

يكون في وقت واحد واحوال واحدة موجوداً وغير موجود . وان لكل موجود سبباً . وانه وجد لغاية . والتي فيها السبب تسمى اولية سببية والتي فيها الغاية تسمى اولية غائية . وكلاهما يؤلفان مبدأ السبب الذي لا بد من التسليم به . واذا انتبهت لهذه الاوليات الثلاث وعلاقة بعضها ببعض . فهمت بسهولة ان الاولية الاولى هي عَلَى نوع ما واسطه بين الاوليتين الاخريين وتنتج من وجودهما معاً . فانه اذا كان لكل موجود سبب وغاية اي سبب فاعلي وسبب غائي نتج انه هو هو ولا يمكن ان يكون غير ذلك بطريقة من الطرق . فان حقيقته ترتبط من جهة بالسبب ومن اخرى بالغاية وهو كحد اوسط يربطهما بعدم اجتماع النقيضين في وجدانهما

وهنا اقول ايها الصديق إنا اذا اردنا ان نتعمق في التحليل نقتنع بان السبب الفاعلي والسبب الغائي شيء واحد . لان السبب الغائي لوجود كل موجود (حادث) ما هو الا السبب الفاعلي لوجوده لانه يمتد الى الغاية ولهذا يعتبران واحداً ويتألف منهما سبب وجود كل موجود (حادث) وهذا هو الذي يحملنا عَلَى ان نعتبر النطق بمعنى السبب والنطق هو معنى الكلمة اليونانية لوغوس . ان نطقنا هو القوة التي بها نطلب السبب اي سبب البرايا لاننا نعتقد ان لكل شيء سبباً . ومع هذا ترى ايها العزيز ان اجتماع تلك الاوليات الثلاث التي في المنطق ليست الا اعتقاد ما للاسباب والوسائط والغايات من

الارتباط · ولنا ان نسمي هذا الارتباط نظام البرايا الذي ينطبق على نواميس النطق · إنا ندرس هذا النظام في العلوم ونجتهد في ان ندركه ونستعمله بالصناعة فنتقدم في احكامه · هذا النظام يوصلنا الى الحقيقة متى عرفنا ما هو · واي شيء هو · ومن اين نتج · ولاي شيء يستعمل · اي كيف وجد · ولماذا وجد · واذا عرفنا حقيقته قدرنا ان نستعمله بامن لنفعنا ومسرتنا · واذا بحثت عن الطريقة التي توصل بها الى الاكتشافات العلمية العظيمة والمخترعات الميكانيكية الخطيرة رايت انها البحث عن حقائق الاشياء المحسوسة واسبابها وغاياتها · ولهذا عينه كانت الملاحظات الطويلة المتكررة والتجارب العديدة المتنوعة والحسابات المدققة والاقيسة والضوابط لمعرفة الكائنات والحادثات واسبابها وفوائدها

اترى الآن اني كنت مصيباً بقولي لك انه بالنطق يزيد الانسان سمواً كما انه بالعقل يعرف اسباب الاشياء ويكتشف نواميس الطبيعة ويرتب العلوم ويخترع الصناعات ويتصرف بالطبيعة ويسودها · والنطق من شأنه ان يتقدم وقلت لك ان عمله الرئيسي البحث عن الاسباب لكن الاسباب التي يكتشفها في هذا العالم كثيرة يرتبط بعضها ببعض وكل سبب مسببه يتبعه وهو نتيجة ما سبقه فليس هو سبباً مطلقاً بل محدوداً فكل اسباب العالم كذلك وينحصر بعضها في بعض · والنطق بما فيه من الاوليات يضطر ان يعتقد ان فوق هذه الاسباب المحدودة

التي ليست هي في الحقيقة سوى مسببات ونسميها اسباباً مجازاً سبباً اصلياً او اولياً وهو سبب مطلق حقيقي لا نسبي او مجازي واجب الوجود كل غير محدود هو الله نفسه

فقد تبين لك ان النطق هو الايمان بالله · وهذا معنى قولي لك ان العقل قوة الهية في الجنس البشري تقوده الى غير المحدود · وفوق وصوله الى سبب الاسباب المطلق بالبحث عن الاسباب يصل اليه بالبحث عن وجود الكائنات المادية المحدودة · ان المادة ذات ابعاد او امتداد وكل امتداد يقسم الى غير النهاية ومهما صغرت دقائق المادة يمكننا ان نفرض دقائق اصغر منها هي اجزاؤها وهذه ايضاً تتجزأ فتكون اجزاؤها اصغر منها بالبديهة وهلمّ جراً · وكل موجود مادي هو في زمان ومكان وكل موجود في حيز اي قسم محدود من المكان المطلق يشغله ذلك الموجود · فقل لي هل يمكن ان يحصر كل من الزمان والمكان · ان العالم مهما كان عظيماً فهو في مكان وما وراءه مكان وان خلا مما يشغله فلا يستطيع العقل ان يجعل للمكان حداً · لو فرضنا ان الكرة الارضية لم تكن كان المكان الذي تشغله فارغاً وكذا لو فرضنا الاجرام السماوية · لكان المكان الذي تشغله فارغاً · وكل هذا ليس سوى جزء من المكان غير المحدود · فمهما كان الامتداد عظيماً لا يمكنه ان يشغل المكان الذي لا حد له · وما صدق عَلَى المكان يصدق عَلَى الاستمرار والزمان

افرض ما تشاء من الزمان للعالم وزد عليه الوفاً وربوات من الادهار وزد عَلَى هذا الوف الالوف وربوات الربوات من الادهار وزد عَلَى هذا كله ما تشاء من امثاله يبق وراء كل ذلك زمان · فالاستمرار مهما فرضت طوله فانه لا يشغل الزمان المطلق او غير المحدود فالمكان والزمان المطلقان اي غير المحدودين هما مصاحبان لاصل الوجود فترى هنا ايها العزيز ان هذه مرتبطة بالسبب غير المحدود فيمكن عمله ان يمتد الى ما لا يحد على حسب الزمان والمكان غير المحدودين اي ان السبب غير المحدود يقتضي مكاناً وزماناً غير محدودين والا لما كان عمله غير محدود · فلنا ان نستنتج ان العالم حدث من غير المحدود ويقيم بغير المحدود · وهذا يفيدنا اياه العقل ولذا نكرر قولنا ان النطق هو القوة التي تقودنا الى غير المحدود

وبهذا تدرك بسهولة انه بالنطق نتصور كما قلت لك ترتيباً ونظاماً احسن احكاماً من ترتيب العالم ونظامه · وساعدنا عَلَى ذلك قوة التخيل التي بها نشعر اشد الشعور بالتاثيرات والتذكرات والاهواء · إنا نرى احياناً ما لا وجود له ونخاف ونرجو ونفرح ونحزن بلا سبب ولكن متى اقترنت المتخيلة بالعقل وكانت نطقية · كملت الوظيفة السامية وولدت الحياة اكمل الموجودات وجعلتها تبلغ اقصى درجات الاحكام وتنشئها عَلَى احسن رسم وتخترع الفنون الجميلة · وهذا هو العمدة في الصناعات الجميلة وانما لا بد من ان يبنى عَلَى مبادىء محققة في الطبيعة في نظام

العالم المنطبق عَلَى نواميس النطق · فان قيل ما هذا الترتيب قلنا هو الارتباط بين الاسباب والوسائط والغايات · ان المتخيلة تدرك اسباب الموجودات ووسائطها وغاياتها حق الادراك وتكسب مخترعاتها كمال العمل والحياة وابهى الهيئات وترتبط بنظام الوحدة والتنوع اللذين تتألف منهما الكائنات عَلَى نواميس النظام والترتيب · وبهذه كلها يعبر باحسن ايضاح ان الانسانية من الله واليه · وهذا هو عمل المتخيلة والمفكرة والمتصرفة الشريف اي صنع الجمال · وهذا يقابل الحقيقة التي يتوصل الى معرفتها بالنطق كما نظرنا آنفاً · وانت تعلم انه كما يبحث النطق عن الحقيقة يبحث علم خاص بالمحب عن الجمال ونسميه علم البحث عن الجمال

ولكن للنطق موضوع آخر وهو الصلاح واليه يعزى كل ما قلته لك في اخر رسالتي السابقة ومتى اوضحته لك تمّ لك التعليل كما ارجو وكان لنا تمام التصور لتلك الصفة الثمينة التي يعلن بها ما فطرت النفس البشرية عليه والقصد السامي من تعريفها · قلت لك في اخر تلك الرسالة · انه بالعقل يتوصل الانسان الى مبدإ وجوده والقصد منه وناموس سابق تحديده والواجب الادبي والرباط الحقيقي الذي يربطه بمن هو مثله · فكيف لا تجد كل هذه بالعقل وهو يعلن لك ائتلاف الاسباب والوسائط والغايات وهو ترتيب الكائنات المنطبق على نواميس النطق السليم · وكيف لا ندرك حق الادراك ان العقل في سلك

هذا النظام وان النطق ناتج عن سبب وهو واسطة الى غاية · فهو عَلَى ذلك ضمن نظام الكائنات العام · ويدعى هذا النظام بالنسبة الى الانسان ادبياً ويتحقق بالضرورة من سائر الكائنات · فوجب بذلك انه يكمل بارادته الحرة · ولهذا كان الانسان شخصاً ادبياً ومسمى كذلك فهو مكلف ومسؤول · وله بكونه مكلفاً حقوق هي وسائط للقيام بما كلف به من الواجبات الخاصة · وكيف تتحد هذه الواجبات · انها تتحد بالغاية التي لاجلها عين الجنس البشري وحدّد · وندرك تلك الغاية بالبحث عن متعددات من المبادىء الطبيعية المتعلقة به التي تبين لنا حقيقة كل من افراده · والى اين يتجه · وكيف يجب ان يتوسع في اعماله ويرتبها وكيف نوفق بينه وبين سائر الافراد · وكيف تنساق هذه كلها الى التآزر عَلَى اتمام مقاصدها العامة

ومن اهم ما يبرهن بهذا البحث نسبة الانسان الى الله غير المحدود وأنها تميزه عن سائر الكائنات · وانه اتى من غير المحدود ويعيش في غير المحدود ويجب ان يتجه الى غير المحدود · ولا ادري باي المبادىء علمت الادب فان مبدأه واساسه عندي الحرية · وان الناموس الادبي عَلَى ما اعلنه لنا العقل هو رأي الله نفسه وارادته وانا باعتبار كوننا كائنات ناطقة مكلفون دائماً ان نكون عَلَى تمام الخضوع له · لكني اعرف علم ادب خالٍ من هذه المبادىء لان اساسه ناموس النشوء الدرويني والاضطرار العام · واني لا انكر ولا احد ينكر ان المعاني

الادبية انتشرت وتقدمت وانها كماليات معاني سبقتها كمعنى الحق . وان ادب المتوحشين دون ادب المتمدنين فادب برابرة افريقية دون ادب متهذبي اوروبا وغيرها من المتقدمين في المدنية . وانه سيخلف ادبنا ادب اكمل منه . ولكن هذه كلها اولى بان تكون ادلة عَلَى حرية الروح وتقدم العقل

نعم ايها العزيز ان الحرية والنطق هما الانسان كله . وعلم الادب دون هذين هو علم ادب البهيمة لا علم ادب الانسان . وان الحرية والنطق فوق كونهما قوام الاداب الشخصية هما العاملان في الحقوق الاجتماعية . وعن الحرية الادبية تنشأ سائر الادبيات كما قلت لك غير مرة مثل ان القنية حق مقدس يحظر اغتصابه . ومنها الحرية المدنية وحرية الافكار والحرية الدينية والحرية السياسية . والنطق كما يوجب مراعاة الناموس الادبي على الفرد يوجبه عَلَى الجماعات والهيئة الاجتماعية كلها . وهو رئيسها الحقيقي الذي يمكن ان نجهله بنبذنا وصاياه ولكننا لا نستطيع ان نهرب منه من سلطانه فانه يعاقبنا على زيغنا ليردنا الى احترام العدالة التي هي القانون الواجب على الفرد والمجتمع ومصدر الحق الكفيل لكل حرية . ومن هنا النواميس والشرائع والحكومات وسائر الوسائل التي بها نحترم العدالة . فترى من هذا ان علم الحقوق الذي احسن افلاطون تعريفه بقوله . هو صناعة ترتيب الحقوق في المدنية . فالحقوق تابعة لعلم الادب وهو البحث عن الصلاح . ولو امكنني

الاطناب في هذا البحث لبرهنت لك ان كل الجمعيات البشرية في حياتها التاريخية هي ترتيب بموجب الناموس الادبي لا بموجب الناموس الدرويني حتى ان فلسفة التاريخ ليست سوى توسيع الشرح وتميم البحث عن الصلاح . وهذه الامور سيعلمك اياها غيري لاني ما تعهدت الا بان اقودك الى البحث عن نفسك . وآمل انك فهمت قبلاً ما هي صفتها الاولى السامية التي نسميها نطقاً . واشرع هنا في حل سائر المسائل في رسالتك .

قلت لي اي نطق يستخدم لمعرفة الحقيقة . « النطق الشخصي ام العام » وانه « كيف يثبت النطق العام وهل يكون سوى مجموع مناقضات » فاقول اظنني اجبت عَلَى هذا في ما سلف بالتقريب . وانه بمثل هذا اعترض عَلَى الملاحظات الفردية (او الشخصية) . وقلت لك ان الملاحظات الشخصية تصير بالاستقراء واسطة لمعرفة يقينية . فانت تخاف الان من تناقض نطقينا الشخصيين ولكن لا سبب لهذا الخوف لانه ليس للنطق الشخصي من وجود . ان النطق واحد وهو عام ابداً ومشترك اي هو نفسه في جميع الناطقين . ومبادىء النطق هي نفسها في كل العقول لكن الشعور به واستخدامه وتطبيقهما يتفاوتان بتفاوت الاشخاص والاحوال . فمن ينكر او يستطيع ان ينكر ان الشيء الواحد نفسه لا يمكن ان يكون في الوقت الواحد نفسه والاحوال عينها ان يكون وان لا يكون . او يمكن ان يغش احد في حقيقة من الحقائق

الا لغفلة او نقص الملاحظة او لوهم او هوى او لعارض آخر

نعم يمكن ان يخدع بنسبة صفة جديدة الى غير موصوفها لانه لم يتحققها قبلاً باستقراء كامل الشروط مستوف بذل الجهد ولكنه لا يمكن ان يخدع بان النقيضين لا يجتمعان وان لا يعترف بهذه الحقيقة بل انه حين يفتكر يتخذ هذه الاولية اساساً عن معرفة او عن غير معرفة بقول او بغير قول · ومن ينكر ايضاً ان لكل معلول علة او ان يعتقد ما ليس سبب سبباً · وهل يقدر احد ان يجهل الغاية · ان كل انسان يعتقد ابداً وجود السبب والغاية فترى من ذلك من اين تنشأ الضلالات وكيف يمكن ان تكشف · ان الضلالات لا تكون في الاوليات المنطقية المجمع عليها انما تنشأ من تطبيقها بغير النهج القويم او من اتخاذ وسائل المعرفة في طريق ملتوية والدليل عَلَى ذلك الاجماع عَلَى العلوم التي لا استقراء فيها ولا ملاحظة الافراد ولا التجارب لانها كلها تنشأ عن معانٍ نطقية كالوحدة والاعداد والنقطة والخط والاشكال وامثالها مما يبرهن بالقياس الصحيح ومنها العلوم الرياضية فان لا خلاف في صحتها · وكل المباحث التي عَلَى هذا السنن يقينية كالعلوم الرياضية والى هذه الغاية يتجه كمال كل علم

واليوم الكل يسلمون باكثر آراء علماء الطبيعة والرياضية لانها ثبتت بدليل رياضي وحققت بالتجارب · فاكثر الضلالات والمناقضات انما هي في الآداب المدنية · وعلة ذلك ان الانسان يدرس فيها احوال

نفسه وهو يميل اكثر الميل الى الاشياء التي يرتاح اليها · قال باكون « الانسان يميل اكثر الميل الى ما يعجبه اكثر الاعجاب » وعلى هذا قد ينفي طبيعة الناطقة الروحية وناموسه والله نفسه · والذنب في ذلك على الانسان لا على النطق · وعلمنا النطق فوق ذلك معنى الله غير المحدود ومعني الزمان والمكان غير المحدودين ولكن ضرورة السبب الاول (او وجود واجب الوجود) على غاية الوضوح حتي ندر منكروها · فالحكماء والبسطاء والمتمدنون والبرابرة متفقون على مبدإ الهي لكل شيء ويعبدونه فالكافر او المعطل الباني كفره او تعطيله على مبدإ علمي يجب ان يحكم عليه بانه غير ناطق · وفلاسفة مثل هذا لحسن الحظ قليلون جداً · وظهرت مذاهب واديان كثيرة في شأن السبب الاول وحقيقته ونتائجه وتاثيره في العالم · وسأبين لك ذلك احسن تبيين كما وعدتك ولكن وجوده لا ينكره احد لانه اول الحقائق التي يحكم بها النطق واوضحها واثبتها في المعقولات · ومع ان الفلاسفة الذين التفتوا الى غير المحدود من الزمان والمكان يمكن كل انسان ان يتوصل الى ذلك اذا اتيح له من يرشده بصبر

فمن لا يفهم مثلاً انه اذا دفعت المائدة فابعدتها بقي مكانها واذا دفع كذلك الحجرة والدار والمدينة والارض كلها وكل الاجرام السماوية بقي مكانها · فالمكان غير محدود · وكل حد فرضته له كان وراءه مكان · وعلى هذا لا بد من الحكم بان المكان غير محدود اي لا بداءة

حقيقية له ولا نهاية . وبمثل هذا الاسلوب تبرهن ان الزمان كالمكان في ذلك . فمهما تصورت من المدد ولو كانت الوفاً وربوات من الادهار فلا بد من ان يكون قبلها زمان وبعدها زمان . ولا يستطيع احد ان يتصور الزمان محدوداً . واكرر هنا قولي ان هذه الافكار ليست لكل انسان كما ابداها . ولكن كل واحد يفهم ذلك اذا شرحته له ويفهم كل الآراء العلمية التي تفرضها . افلم تقتنع من هذا البيان ان النطق واحد في الجميع مع انه لا يشعر الجميع شعوراً واضحاً كاملاً بما فيهم من المبادىء والمعاني . ولكن يمكن الحصول على ذلك بالتحليل البسيخولوجي والبراهين الملائمة . فما الموجب للالتجاء الى النطق العام وهو ليس سوى مجموع ما للافراد من النطق او العقول الناطقة والنطق او العقل في الافراد واحد في الحقيقة فكل انسان يستنير بذلك النور الواحد . وتفاوت درجاته بتفاوت السن والتربية والذكاء والمطالعات والاحوال والوسائل

واظن انه بقي عليّ ان ادفع شكوكك في العلاقة بين النطق الشفاهي والنطق الوجداني او الداخلي . وهذا دفعه سهل . لانك لا بد من ان تكون قد اعتقدت من كل ما ابنته لك ان النطق الوجداني او الداخلي هو الخاصة الاولى للنفس وانه به نعرف الحقيقة وندرك الجمال ونميز الصلاح . وانه به كل العلوم والصناعات ومنه ينتج الادراك ويترتب . وبه تنتظم الاعمال وبه نرقى الى اسمى المعاني وهو معنى الله

وبه يكون لنا الايمان • فكل العالم الداخلي اي عالم الافكار يترتب ويدبر بالنطق • وباي شيء غيره يمكننا به التعبير عن انفسنا او عن وجدانياتنا او الاشياء التي في انفسنا من معانينا وعواطفنا وانفعالاتنا وارادتنا • واذا كانت هذه كلها خاضعة للنطق وبه تترتب وتدبر فالنطق نفسه يعبر عنه باللغة فيصير شفاهياً ولولا خيفة التطويل لبرهنت لك بتحليل مواد كل لغة وتحليل اقسام الكلام • ان كلها تقابل مواد النطق الوجداني واقسام صوره او تنطبق عليها حتى انك تعجب بهذا من حكمة اسلافنا وهي انهم بالنطق نفسه ابانوا اعمال النفس الباطنة وعبروا عنها بواسطة اللغة

ولقد اسهبت في البيان والله اسال انك تجد ذلك وافياً بيناً وليس ادنى مما تتوقع

الرسالة التاسعة عشرة

من إجانيوس الى فيلوثيوس

استاذي الفاضل اني لعاجز عن ايفاء الشكر لك فقد اوضحت لي النطق وحقيقته والبون البعيد بين الانسان وسائر الحيوان وعلاقة النطق الشفاهي بالنطق الداخلي وبهذا قد نظرت سمو المنزلة التي عليها الانسان في مقام الكائنات وعلو درجته في سلم المبروءات • وكم يحتقر ان لم يحافظ على

رتبه وهذا يحملني عَلَى النظر في امر نفسي ودرس احوالها · وما اظنك تابي ان اسألك اسئلة اخرى لتحقق ما علمتني واكمال معارفي الحقيرة

قلت في اخر رسالتك ان النطق هو الخاصة الاولى للنفس وانه به يترتب الفهم ويثمر وينتظم العمل ويحسن اتمامه · وان النطق يسوس كل عالم الفكر وان كل ما فينا من العواطف والانفعالات والارادات خاضع لسلطانه · هذه كلها فهمتها الى حدٍ لا الى النهايـة · لاني رايت ان النطق يكشف لنا ترتيب العالم ويقدرنا عَلَى فهم معنى الله ومعني الزمان والمكان غير المحدودين وانه يؤيد العلم ويدرك الصور العقلية بمساعدة المتخيلة او المفكرة او المتصرفة ويعبر عنها بواسطة الفنون الجميلة وانه علاوة عَلَى ذلك يحدد الناموس الادبي كركن كامل للترتيب العام حتى انا مديونون للنطق بالحقيقـة والجمال والصلاح لكن العلوم والصناعات والادبيات ليست الانسان كله · فان عمل النفس عَلَى ما اظن اوسع من ذلك اذ له قوى كثيرة تعمل في النفس بلا انقطاع وليس كل الناس علماء او ذوي فنون جميلة او فلاسفة اديين · ومثل من هم كذلك قليلون جداً · فاذا كانت كل نفس ناطقة فلاي شيء يستعمل اكثر الناس النطق واذا كان لا يستعمل فكيف يكون كل ما في الناس تحت سلطانه · افلا يمكنك ان تبين لي هل يتعلق النطق بكل قوى النفس وكيف يتعلق بها وبكل مبادىء الادراك · وقد استعملت كلمة الفهم كثيراً ولم تقل لي ما هو الفهم · اقوة واحدة هو

ام غير واحدة وكيف يترتب مع النطق

سمعت مراراً كثيرة البسيخولوجيين المتأخرين يحتقرون قوى النفس ويدعون ان علماء النفس يختلقون احكاماً سخيفة وكائنات كثيرة بلا حاجة ولا ضرورة وتتناقص اراؤهم الخاصة التي تقتضي ان النفس واحدة لا تتجزأ فارجو منك ان توضح لي كيف تتفق القوى الكثيرة مع وحدة النفس ٠ وهنا شك آخر وهو ان النفس الواحدة غير المنقسمة او النفس غير المادية ترتبط بالمادي وهو الجسد ٠ فكيف يصح ذلك او ليس من الطبع ان المادي وغير المادي متضادان فاي علاقة يمكن ان تكون بينهما ٠ واذا فرضنا واسطة بينهما فلا بد من ان تكون اما مادية واما غير مادية وعلى كل تبقى الصعوبة عينها ٠ واما ان لا تكون مادية ولا غير مادية وحينئذٍ لا تكون شيئاً لاننا لا نستطيع ان نتصور ما لا ينطوي تحت احد الامرين ٠ فهل افتكر انا واحكم بما يظهر لي وهو غير الواقع ٠ افلا تقول ما الذي يجب ان اعتقده في هذا الشان ٠ وما الكائن ٠ فإنه إذا ثبت انّ في الوجود كائنات مادّية وكائنات غير مادّية فهي مختلفة الحقائق ومتضادّة فكيف يتّضح ذلك باللفظ الواحد ٠ الكائن معنى كلي تندرج فيه افراد الموجودات ام لا ٠ واذا لم يكن له هذا المعنى فالتعميم غير حقيقي او تسامح ٠ وان ثبت ذلك المعنى فهل يقبل التحديد ٠ وان قبله فما هو

فانظر ايها الاستاذ كيف يؤدي الشك الواحد الى شك آخر ٠

فما اشد افتقاري الى تعليمك وارشادك اني لمعرفتي صلاحك جسرت ان اسألك هذه الاسئلة واتوقع اجوبتك عليها

الرسالة العشرون

من فيلوثيوس الى إنجانيوس

ايها الحبيب ان شكوكك الجديدة من مقتضى الطبع وهي تدل عَلَى انك تقدمت وتتقدم في معرفة الحقائق التي بلغتك اياها · واني لادفع ريبك برضى ومرور لكني اسألك زيادة الانتباه · فاننا عَلَى وشك ان ندخل بواطن النفس وقدس اقداسها · واسمح لي ان اعكس ترتيب اسئلتك فابتدي من السؤال الاخير لان الجواب عليه يمهد السبيل الى الاجوبة عَلَى سائرها

قلت ما موداه هل للكائن معنى كلي مع اختلاف الكائنات في الحقائق ومضادة بعضها لبعض وهل يقبل هذا المعنى تحديداً وما هذا التحديد · لا ريب في انك اذا عبرت بكلمة واحدة عن متعددات وجب ان تشترك في شيء فالاسم الكلي يجب ان يعبر به عن الصفة التي تشترك فيها كالحيوانية التي يشترك فيها الاحياء الحاسة المتحركة بالارادة فانه يعبر عنها بكلمة واحدة هي الحيوان · واللغة البشرية لا تخطىء في هذا السبيل · وهي بالبديهة توضح الصور الذهنية وان العلم

يؤيد تعميم هذا الحد ولا سيما علم الفلسفة العقلية · واظنك لا تجهل ان علم البحث عن الكائنات او عن الكائن حقيقة كما كان يقول ارسطوطاليس هو فرع ما وراء الطبيعة · ولكن لا تخف فاني لا اقصد ان ادخلك الى دائرة هذا العلم الفلسفي الذي هو اليوم مبهم عَلَى كثيرين وموضوع مناظرة وجدالٍ عظيم ولا حاجة لي اليه هنا · إنا نستنتج تحديد الكائن من كل ما عرفناه الى الان · انك سلمت بان الانسان ليس كله مادة وان شيئاً ذا وحدةٍ لا يمكن ان يكون مادة ويسمى روحاً وان هذا الشيء ذا الوحدة ذو اختيار او ارادة حرة ويعمل بالاختيار · يدرك ويفتكر ويريد ويفعل ويعلن افكاره بواسطة اللغة وواسطة اعماله · فاذاً تحت ظواهر الانسان فاعل او موضوع كما قال القدماء او جوهر كما يقول المحدثون · وهذا الجوهر يعلن بظواهر مختلفة من داخلية وخارجية تمثل هيئته او نوعه وهي ذات الشخص او ملامحه

واليك ايها الصديق الاصول الاولى لمعنى الكائن · ان الكائن كل جوهر له علاقة بهيئة من الهيئات · ومن المعلوم ان الجوهر يصدق عَلَى ذوات حقائق مختلفة وليس لسوى الجوهر الروحي صفة الوحدة وعدم الانقسام والاختيار والافتكار والنطق ولكن جوهر الكائنات المادية لا وحدة له في الواقع كما قلت لك غير مرة ولا اختيار ولا ادراك ولا نطق · فان قلت ما العامل فيها · قلت قوة خفية تجتمع بها الدقائق

وتتألف علَى اساليب مختلفة فتوءثر تاثيرات تميز بعضها عن بعض . فان قلت ما هذه القوة قلت لا نستطيع معرفتها بديهــة كما نعرف العامل فينا بالوجدان . فالعامل في المادة او قوتها ميل كلٍ من دقائقها الى الائتلاف بالاخر لتاثير بعضها في بعض . فهي معنى مجرد لايضاح المعاني المجردة . ولكن اذ كان لا بد من وجود المعاني المجردة في ما تجردت منه وجب الحكم بان تلك القوة ليست اسماً بلا مسمى . فهي تدل على وجود الظواهر المادية او ظواهر الطبيعة المادية المحققة الناشئة عن سبب خفي او باطن . هذا هو حقيقة الكائنات المادية ولا يمكن ان يكون الا كذا . والكل مجمعون علَى هــذا ان النطق يلجىء الجميع الى التسليم بوجود سبب خفي لكل تاثير ظاهر . ونفاة الروح انفسهم ينسبون كل الاشياء الى المادة والقوة . واظنك لا تجهل انــه يوجد كتاب عنوانه « القوة والمادة » لاحد مشهوري الماديين في هذا العصر لكل كائن جوهر وهيئة وعلاقة ويجب ان نضيف الى هذه الاصول اشياء اخري

قلنا سابقاً ان النطق يكشف لنا المكان والزمان المطلقين اي غير المحدودين وانه لا غنى عن ذلك فكل كائن في مكان وزمان فيجب اضافة هذين الاصلين الى اصول الكائن . فان قلت اني اسلم بان الكائنات المادية في مكان لان المادة ذات ابعاد اولها امتداد وكل امتداد يقتضي مكاناً لكن الروحيات لا ابعاد لها فلا تقتضي مكاناً . قلت انك

مصيب من بعض الوجوه وذهب هذا المذهب جماعة من مشهوري الفلاسفة كانديوس البعيد الصيت وبان استاذ المنطق الكبير في ابردين وغيرهما من الفلاسفة الروحيين والماديين ولكنا مع احترامنا لهؤلاء الحكماء واعترافنا بالمنة لهم ولا سيما الاول اعترف باني لا استطيع تصور كائن ليس في مكان ولا زمان · والذي اصبت به ان الروحيات لا تشغل مكاناً ولكن ذلك لا ينفي انها ليست بمكان وربما عدم شغل الروحيات للمكان كان علة خطإ الفلاسفة المذكورين لانهم لم يفهموا كيف يوجد الشيء في المكان لا يشغله او يشغل شيئاً من المكان المطلق اي ان يكون في حيز · ولكن المكان غير مادي والا لم يكن غير محدود لان المادة لها حدود مهما كانت كبيرة

وآمل انك لا تخاف الان كما كنت تخاف من الآراء في شان غير المادة من الكائنات · اذا اعترفت بان نفوسنا ليست بمادية · ومن جهة اخرى ان علم الهندسة نفسه وهو اول العلوم اليقينية يثبت المعاني المتعلقة بمباحثه كالنقطة وهي وضع لا يتجزأ (اذ لا شيء له من الابعاد) مع ان كل معانيها معانٍ نطقية محضة لا يخالطها شيء من المادة · اما اثبات الزمان فلا شيء فيه من الصعوبة لان كل انسان يسلم بان كل موجود في زمان · فلنا مما ذكر الى هنا ان كل كائن جوهر ذو هيئة او شكل وانه في مكان وزمان · ولا بد من اضافة اصل آخر الى هذه الاصول · ان النطق بمقتضى مبادئه الثلاثة يبين لنا ان بين الكائنات

ترتيباً او ارتباطاً اعني اسباباً ووسائط وغايات · وقد اصبنا بتسميتنا ذلك بالنظام المنطبق عَلَى نواميس النطق فاذن هذا الترتيب اصل جوهري لمعنى الكائن ويجب ان يدخل في تعريفه ليكون حداً جامعاً مانعاً · فيقال ان الكائن جوهر ذو شكل في مكان وزمان مرتب ترتيباً نطقياً

فهذا ايها الحبيب هو الحد التام للكائن · وهل يمكنك ان تتصور او تفرض كائناً في العالمين ليس له كل هذه الصفات اي لا جوهر له ولا شكل وانه ليس في زمان ولا مكان وخارج عن كل نظام اي انه ليس هو كما هو وان لا سبب له ولا غاية فتفكر وتامل وحدك في هذا الشان وابد كما تشاء وكيف تشاء كل ما قلته لك · ولا ريب في انك ستسلم ان التحديد المذكور يصدق على كل كائن · نعم ان هذا التحديد لا يراه كل الناس قريب المنال ولا يدركونه بداهة كما انهم لم يستطيعوا اقل تحديد علمي على البديهة بدون تعليم · ومع ذلك في كل منهم اصول هذا التحديد لانهم ذوو نطق · واذا ارشدوا باسلوب ملائم الى بيان هذه الاصول استطاعوا ان يفهموا كلاً من افرادها ومجموعها · وصار شعورهم الناقص المشوش كاملاً مرتباً اي ادراكاً علمياً · وانه بدرس كل الاعمال التي بها يقوم الادراك وبتحليلها بالانتباه يتبين للناس ان تلك الاصول لكل منها بمقتضى تحديد النطق للكائن وان لم يستطع الجميع ايضاحه بطريق علمية · وهذا مما يحملني

على النظر في اعتراضك الاول

انت موافق لي على ان النطق ينشىء العلوم والصناعات وانه ينشىء بالمتخيلة او المفكرة او المتصرفة الفنون الجميلة وانه يعلن لنا سيرتنا الادبية · ولكن اذ كان ارباب العلم والفنون الجميلة والفلسفة الادبية قليلين وقد قلت لك ان النطق يرتب الادراك كله ترغب ان تعرف كيف يكون ذلك · فما هو الادراك اقوة واحدة هو ام اكثر · وكيف يخضع كل ادراك لسلطان النطق وبه يترتب ولماذا كان ذلك افعلمت حقيقة ما ترغب فيه وتطلب معرفته · انك تطلب معرفة كل الفلسفة العقلية وهذا لا يمكن بيانه في رسالة واحدة · ومع ذلك أفي بوعدي لابهجك فارسم لك ظل النفس او خطوط حدودها ومع تقدمك في البحث تتمكن من رسم صورتها الكاملة على تلك الحدود

اقول لك ايها العزيز ان النفس قوة واحدة ذات اعمال متعددة في طرق كذلك نسميها مجازاً او تساهلاً قوى · وهذا يبين بطلان الدعاوي التي يقيمها الماديون على الروحيين مثل قولهم ان معتقدي النفوس يعددون كيان النفس ويجزئونها على ان لا احد من الروحيين يتصور ذلك بل يحكمون بعكسه فانهم يسلمون اكثر ممن سواهم بوحدة النفس وعلى هذه الوحدة يبنون آراءهم ولكني جرياً على المصطلح المعهود أستعمل القوة للتعبير عن طرق اعمال النفس الكثيرة · وقد عرفت في ما مر ان قوة النفس الاولى هي الوجدان الذي يقترن بجميع أعمالها كل الاقتران

ولا نعرف انفعالاتنا الا به كما ابنا في ما سلف . واذا كانت النفس ناطقة فلا بد من ان يكون الوجدان كذلك . وهذا يبين لك علاوة عَلَى ما ذكر المعاني الفطرية او الضروريات والبديهيات التي كثيراً ما بحث عنها في الفلسفة . وبعضهم نفاها استناداً الى القول بان لا صورة عقلية لم يسبقها الشعور . ونسبوا هذا القول الى ارسطوطاليس عَلَى انه لا أثر له في مؤلفاته . فالقول بان لكل حادث سبباً من الفطريات او الضروريات والبديهيات في كل الكائنات لانها كلها مشتركة في الاصول السابقة اي لكل منها كل المبادىء التي بها تقوم الكائنات اذ كلها في مكان وزمان وكلها على نظام منطبق عَلَى نواميس النطق الصحيح . وبهذا يمتاز الانسان عن سائر البرايا الحيوانية اي بانه يشعر بالسببية في نفسه وفطرته وعَلَى هذا يحكم بالضرورة ان حكم الوجدان او الحكم به من الفطريات

وليس هذه المعرفة سواء في الجميع او تامة فيهم ومرتبة عَلَى نسق علمي لكن لكل ان يحكمها . وهذا او لا سواه مراد القائلين بان لنا احكاماً فطرية او بديهية او ضرورية . ومن الوجدان نأتي الى استيعاب المحسوسات او الاشياء الخارجية والنظر في انها هل تستوعب بمقتضى النطق وانه متى ينشأ الشعور عن التأثير . ونعرف انه لا بد من شيء خارجنا ينشىء التأثر . واي شيء ناتيه للاستيعاب بواسطة الشعور سوى مراعاة مبدإ السببية . فإنا نحكم بالبديهة ان للشعور سبباً

فان لم يكن فينا وهو الواقع فلا بد من ان يكون شيئاً خارجاً عنا ·
ونحن نعرف في الوقت عينه ان الشيء الخارجي الذي هو علة التاثير
والشعور كائن اعلن لنا بالفعل الصادر عنه اي بهيئته الخارجية او شكله
نعرف هذا وان لم نستعمل هذه الكلمات وربما جهلناها كل الجهل ·
وهذا الامر الخارجي لا بد من ان يكون في زمان ومكان وعَلَى نظام
وتحت ناموس وليس في الناس من ينفي ذلك اذا أبى المكابرة

فانظر افليس من هنا تصدر كل المباحث والتجارب في الامور
الخارجيـة اما لاستنباط العلوم او عَلَى سبيل العـادة او للتوصل الى
الحاجيات · فاذا الاستيعاب جارٍ عَلَى سنن النطق ونواميسه · والانتباه
هو محاولة الارادة الاحاطة بالامر والاحتراس من فواته لتقوية الوجدان
والاستيعاب فهو خادم لها او تابع · ومهيجاته الاحوال المختلفة من
حركة مؤثرة او فجاءة او ظهور امر للحواس اول مرة ظهوراً خاصاً واول
مهيجاته النطق · او لم ننتبه شديد الانتباه حين ارادتنا معرفة الحال
التي نشأ عنها ما يقع تحت حواسنا ومعرفة مصدره وغايته واي حين
نطلب النواميس النطقية التي بها نشأت الافكار الصادرة عن الاستيعاب
والوجدان · تتحد الثلاثة اي الانتباه والوجدان والاستيعاب فينا وعن هذا
الاتحاد ينشأ ما يعرف بائتلاف الافكار

فانظر ما الناموس الذي يحدث به هذا الائتلاف · والبسيخولوجيون
ما عرفوا هذا الناموس حق المعرفة لانهم كانوا يلتفتون اليه عرضاً اما

في علاقات الكائنات الخارجية او في العقل عينه · وفي المباحث البسيخولوجية نحو خمسة عشر مذهباً في الائتلاف · ولو عرفوا ان كل قوة من قوى النفس ناطقة وعرفوا حقيقة المبادئ التي يقوم بها النطق وكيف يرتبط بعضها ببعض لتأليف معنى الكائن المنطبق على نواميس النطق لوقفوا في ذلك على ناموس ائتلاف الافكار ومن المعلوم ان الصورة تستلزم الجوهر الذي تقوم به فصفات الشخص تستلزم النفس التي تقوم بها والكلمة تستلزم المعنى الذي وضعت له · وكل مبدإ من مبادئ الهيئة يستلزم الاخر · ولذلك يذكرنا بالشيء شبهه والجزء بالكل والكل بالجزء وهلم جراً · والمكان والزمان يذكراننا بالكائنات فيهما والكائنات تذكرنا ما توجد فيه من الزمان والمكان · والترتيب النطقي الشامل كل الكائنات هو عينه رباط ائتلاف المعاني لان المبادئ التي يتألف منها الكائن على ما ذكرنا في هذه الرسالة مرتبط بعضها ببعض · فالسبب والواسطة والغاية والكائن الذي يجمعها يذكرنا بعضها ببعض وخلاصة ائتلاف الافكار في القول المشهور « الشيء بالشيء يذكر » فالثمر يذكرنا بالشجرة التي حملته والعلة تذكرنا بالنتيجة والسبب بالغاية والمذهب العلمي بالمبدإ الذي ينتج منه وبالبراهين التي تثبته او تؤيده

فائتلاف الافكار هو ركن الذاكرة وعلى هذا تشترك الذاكرة في الاحوال النطقية التي يقوم بها ذلك الائتلاف · فاكثر الوسائط التي

اخترعت لتقوية الذاكرة والتي هي اكثر من سواها قبولاً للكمال هي الوسائط المرتبطة بالوسائل النطقية ولا سيما المتعلقة بترتيب الاشياء اجناساً وانواعاً عَلَى اسلوب نطقي لتسهيل تذكر الافراد المنطوية تحتها وبترتيب المعاني عَلَى نسق منطقي حتى اذا عرفنا المبادىء الوجيزة العامة السهلة المنال ذكرنا بسهولة ما لها من النتائج الوافرة

وبالاجمال اقول انه على قدر ارتباط بعض المعاني ببعض يسهل تذكرها · ولكن الذاكرة ببعض الاعتبارات هي قوة انفعالية · وهي الخزانة التي تحفظ وتصان فيها المدركات المفتقر اليها لخدمة سائر القوى لتساعدها على ادراك المطالب · واول هذه قوتا التجريد والتعميم · فانه بواسطة هاتين القوتين ترتب الاجناس والانواع التي هي اساس كل دليل من قياس واستقراء كما عرفت · لكن هذه كلها اعمال منطقية محضة وهي قوة النطق في العمل · فان قلت ما المعنى الاعم في النظام المنطقي الذي تندرج فيه سائر المعاني قلت هو الكائن · فإن الكائن هو الجنس الاعلى الذي لا جنس فوقه ويعرف بجنس الاجناس ومنه تتفرع ما تحته من الكليات وتترتب صفوفاً بمقتضى درجة الشمول فلو لم يكن لنا الاعم لامتنع ذلك الترتيب وبهذا المبدإ نجمع المشتركات ونفصلها بالتجريد فنؤلف اجناساً وانواعاً اخص من ذلك الكائن الاعم او الجنس الاعلى فتكون كلها مندرجة فيه · فنقسم الكائن مثلاً الى مادي وغير مادي والمادي إلى آليّ وغير آليّ او الى حي وجماد والحي

الى ناطق وغير ناطق . وبدون هذا الترتيب يمتنع الاستدلال قياساً واستقراء وقد عرفت في ما مر ان الاستقراء يتولد من الاستنتاج القياسي وان أس هذا الاستنتاج قضية اولية هي ان النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان ويقوم بهذا كله عمل قوة واحدة هي المتصرفة « وهذه القوة ان اشتغلت بالصور العقلية سميت بالمفكرة وان اشتغلت بصور المحسوسات المخزونة في الخيال سميت بالمتخيلة »

وقد بسطت لك الكلام على هذا بسطاً كافياً في الرسالة السابقة وقد عرفت ان المتصرفة او المفكرة او المتخيلة تنشىء اكمل الامور التي نتوصل اليها بقوة النطق كتركيب اكمل الاشياء على ما هي في الواقع وتخترع اموراً جديدة تحمل رسم الجمال . وهي مبتدعة الفنون الجميلة فالمتصرفة تجري على نواميس النطق كسائر القوى . وهذا من الامور الواقعة التي لا تحتاج الى دليل . فالادراك جارٍ على سنن النواميس النطقية والنطق يرتبه ويسوسه . وما صدق على الادراك يصدق على العمل اذ هو جارٍ على سنن النواميس النطقية ايضاً وقد اوضحنا هذه المسئلة من بعض الوجوه في ما بسطته لك في الرسالة السابقة مما يتعلق بالناموس الادبي والاعمال الادبية وأبنته من جهة كونها سائرة على سنن النواميس النطقية اذا فعلنا كما نفتكر . وهذا لا يستلزم ان كل عمل مستقيم كما لا يستلزم ان كل فكر غير مصيب . ان من الاعمال ما هو غريزي ناشىء عن الاهواء وعن ايثار النفس المشهور بحب الذات

على انا متى افتكرنا قبل العمل سواء أكان مستقيماً أم لا استخدمنا النطق . وربما عدنا الى هذا البحث الادبي لكنك تقدر بعد ما تقدم ان تفهم على احسن سبيل كل ما قلته لك في نهاية رسالتي السابقة في علاقة النطق الشفاهي بالنطق العقلي او الداخلي

فالنطق الشفاهي هو قوة النفس المعبرة عن الصور او المعاني بالكلام وهو تمثيل النطق العقلي ومواز له . ويتالف النطق الشفاهي من قضايا وكل قضية من ثلاثة حدود الموضوع والمحمول والرابطة وهذه الحدود قد تكون مفردة وقد تكون مركبة ولكن كل منها يرجع الى صورة واحدة فتبقى الحدود ثلاثة . وعلة ذلك ان كل قضية تشمل على محكوم عليه ومحكوم به ورابطة بينهما . وهي تؤخذ من اقسام الكلام من موصوفات وصفات جزئية او كلية وضمائر وافعال الى آخر ما هنالك من انواع الالفاظ . فخذ ما شئت من اقسام الكلام فترى انه يرجع الى مبدإٍ من مبادىء معنى الكائن الذي يحده النطق ويوضح الكائن عينه كله او جزءه او خواصه واعماله وعلاقاته وحدوده ومكانه وزمانه ومنزلته باعتبار كونه سبباً او واسطة او نتيجة . خذ حدود اقسام الكلام او رسومها باعتبار تعريف الصرفيين المشهورين الذين حللوا اللغة البشرية بقطع النظر عن الآراء الفلسفية تجد ان تلك الحدود والرسوم تحقق المماثلة بين النطق الشفاهي والنطق العقلي (او الوجداني او الداخلي) وان اللفظ لا يدل الا على الكائن وما يتعلق به او بترتيبه

خذ ما اتفق لك من اي كتاب شئت واي قضية اردت تجد اذا حللتها تحليلاً منطقياً مبادىء معنى الكائن الذي يحده فاننا نكتشف هذا بواسطة الوجدان . وبمقتضى تلك المبادىء نستوعب الشيء ونتنبه له ونتذكر ونجرد المعاني ونعممها ونفكر ونميز الحقيقة ونعمل الصلاح

قد برهنت لك ان كل فكر يجري عَلَى اصول النطق . وقد حان عَلَى ما ارى ان نستنتج ان نفوسنا كسائر الكائنات جواهر ذات علاقات بالهيئات وانها في مكان وزمان وانها جارية على سنن النظام النطقي وتمتاز عما سواها من الكائنات بصفاتها الخاصة او سجاياها وان النفس روح ذات جوهر لا يتغير وانها حرة ناطقة تشعر بذاتها وتدرك غيرها من الكائنات بواسطة قواها . وبقي في هذا البحث انه كيف يتعلق هذا الجوهر الروحي بجسمنا المادي وسأكتب لك بيان هذا ان شاء الله

الرسالة الحادية والعشرون

من فيلوثيوس الى إغنانيوس

ايها العزيز اني استفرغت المجهود في حل كل ما القيته الي من المسائل حلاً يشفي الغليل . وآمل اني اتيت ما ابتغيت لكنني لا اعدك بالفوز في المسئلة التي آخذ في حلها هنا فانها بسيخولوجية تتوقف

عَلَى التامل الوجداني وهي فوق ذلك من المسائل الفسيولوجية والطبيعية ومن مسائل ما وراء الطبيعة من بعض الوجوه

وقد فصلنا منذ البداءة الى الان الكلام في الظواهر البسيخولوجية كما تتمثل للوجدان وقد اقتنعنا بالنظر والمشاهدة والاقيسة الصحيحة ان الفاعل فيها باعتبار كنهها يستحيل ان يكون من الجواهر المادية او حقيقتها لان حقيقة الدقائق المادية كما ابنا ليست سوى ميل اجزاء المادة الى الائتلافات التي تنشأ عنها كل الظواهر المادية عَلَى اختلاف انواعها وصنوفها ولذا قلنا ان ليس لهذه الحقيقة وحدة حقيقية لانها منتشرة في كل دقائق المادة · وهي مضطرة طبعاً فلا تقدر ذرة منها ان تقاوم ما طبعت عليه من الميل او تغير الائتلاف الذي حدث به · وجوهر النفس مخالف لذلك لانها ذات وحدة حقيقية واختيار او حرية

والائتلافات المادية نوعان الاول طبيعي وكيمي عَلَى الاطلاق اي بدون رسم محدود واعضاء معينة · والثاني آليّ او عضوي · والمعنى ان تلك الائتلافات العضوية لبنىً متنوعة الاعضاء المتحدة لمقصد واحد معين · تصون باعمالها حياة البنية بتحويل العناصر الخارجية الى اجزاء شبيهة بالمالكة التي تقوم مقامها (ويعرف هذا العمل بالتمثيل) وهذه الاحياز نوعان حيواني ونباتي وبينهما بون عظيم · فالحيوانات تمتاز عن النباتات بالحركة الذاتية الارادية وبما لها من المشاعر · وقد راينا حد ما تبلغه البهائم من جهة النفس وما الذي يمتاز به الانسان عنها · فان

قيل اين تنتهي المادة غير العضوية وتبتدىء الحياة الآلية قلنا ذلك لم يوضح · فان البنى الحسية تكتشف عَلَى توالي الاوقات في ما كان يظن انه غير عضوي · وكذا القول في منتهى الحياة النباتيـة وابتداء الحياة الحيوانية فان ذلك غير متحقق لوجود متوسطات بين الحيوان والنبات

ومن الفسيولوجيين من ذهب الى ان الاختلاف بين العضويات وغيرها انما هو في الدرجة وان البنى نتيجة لا بد منها تصدر عن القوة التي تنشىء الائتلافات الطبيعية والكيمية عينها · وهـذه الائتلافات نفسها يعتبرها بعض الكيميين والطبيعيين ائتلافات ميكانيكية محضة · ويؤيدون قولهم بناموس التبلور (وهو انتظام المعدنيات عَلَى شكل قياسي بمقتضى الطبع) فيظهر انه اول رسم للبنية الحيوية في النبات والحيوان · واذ لم يتمكنوا ان ينسبوا ظواهر الحياة الى القوة الطبيعيـة نفسها ذهب فريق منهم الى عمل قوة اخرى مع الاولى وسموهـا قوة حيوية او حيوانية ونسب بعضهم الظواهر الروحية الى هذه القوة (اي القوة الحيوانية) واعتبروها فسيولوجية ومن نتائج اعمال تلك الاعضاء وذهب سائرهم الى اثبات النفس وقال ليس من قوة حيويـة تختلف عن النفس · وان النفس قوة حيوية تتشكل بها البنى وانها لا تشعر باعمالها الاولى الدنيا انما تشعر بما فوقها من الاعمال كالادراك والحس (ويسمون الاعمال التي تقوم بها الاعضاء بالوظائف فيقولون مثلاً ان وظيفة الكبد

افراز الصفراء

فترى من هذا ايها العزيز انا نسير عَلَى ارضٍ ذات اخطار نحن فيها عرضة للسقوط في هوايا التخمينات والافتراضات والمناقضات والتخيلات والاوهام · فلنا ان نقول للباحثين عن الطبيعة المادية والمعروفين بالماديين اتفقوا اولاً عَلَى آرائكم ثم اسألونا عن طريقة اتحاد النفس غير المادية بالجسد المادي فيحق للبسيخولوجيين ان يتوقفوا عن الحكم في هذه المسئلة في مذهب من تلك المذاهب الى ان يثبت احدها بالادلة القاطعة او تجمع الاراء عليه · عَلَى ان الفلسفة العقلية مضطرة ان تبطل احدها او تطرحه ظهرياً وهو القول بان الحياة ناشئة عن التركيب الميكانيكي لانه منافٍ للاعمال النفسية التي هي عَلَى غاية الوضوح اذ ينسب به كل شيء من ادنى الظواهر المادية الى اعلاها واسمى الحوادث العقلية والادبية الى حركة الدقائق الميكانيكية وهذا باطل وابطله بعض الكيميين الذين يرون ان الظواهر الكيمية نتائج قوى اخرى من القوى الخاصة ·

وبقي هنا الظواهر الفسيولوجية التي لا ينسبها بعض الفسيولوجيين الى ائتلافات ميكانيكية ولا الى ائتلافات كيمية بل الى القوة الحيوية او الحيوانية التي تنسب اليها العمل الخاص وبقي ايضاً القول بان القوة الحيوانية ليست الا النفس عينها · واذ قد ابطلنا المذهب الميكانيكي بقي المذهبان الاخران مذهب القوة الحيوية او الحيوانية التي تاتلف بها النفس ومذهب القائلين بان تلك القوة هي النفس عينها · لكن القوة

الحيوية ليست سوى ميل الدقائق المادية التي تنشيء البنية العضويـة (المعروفة باصطلاحهم بالجهاز) وهذا الميل ليس له من وحدة واقعية فعلينا ان ننظر في انه هل يمكن ان يوجد جوهر نفسي بين الدقائق الكثيرة المختلفة · وهذا على ما يظهر بعيد الوقوع او محال

هذا واني لا استطيع ان اعرض عليك الا افتراضات لا احكاماً محققة نظراً الى حال العلم الحاضرة · انه مع الكثرة توجد وحدة واقعية تتحد بها الاشياء الكثيرة · فاذا وقعت هذه الوحدة حسن الافتراض الاخير وهو ان القوة الحيوانية والنفس شيء واحد · وهذا الافتراض ارجح الافتراضات واقربها الى حكم العقل · واذا ثبتت الوحدة الحيوية (دون الحيوانية) اضطررنا ان نحصرها في المملكة النباتية لكن ان صحبتها الحركة الذاتية الارادية والشعور (كانت قوة حيوانية) ووجب ان نفرض وحدة واقعية هي النفس وان هذه النفس في دور عملها الاول تكون بلا وجدان ثم تبلغ الوجدان لذاتها وتتقدم في ادوار حياتها الى ان تصل الى ادراك جزئي في بعض الحيوان ثم تبلغ الادراك الانساني والحياة الادبية الناشئة عنه · وقوة النفس الحيوانية توضح لنا بطريق عَلَى غايـة المناسبة علاقات كثيرة بين الروح والجسد لا مراء فيها فالجسد عَلَى هذا الفرض ليس بغريب عن النفس بل هو جزء طبيعتها المؤلفة من الاتحاد اي اتحاد كل منهما بالاخر وعن ذلك ينشأ الفعل ورد الفعل بين هذين الجوهرين المتحدين كما تنشأ عن ذلك

العلاقات بين المبدأين الطبيعي والادبي بامرها فتكون موضوعاً ذا شان لبحث الفسيولوجيين والبسيخولوجيين

وهنا اكرر ما سبق من قولي ان كل هذه الاقوال فروض كغيرها من المذاهب الفرضية التي طالما حاول الفلاسفة ان يكشفوا بها مسئلة اتحاد النفس والجسد اما بواسطة جوهر متوسط واما بواسطة اتفاق سابق الترتيب واما على طريقة من الطرق كما يتبين ذلك في تاريخ الفلسفة . قلت لك ان هذه المسئلة من المسائل التي هي وراء الطبيعة من بعض الوجوه . ومرجع هذا البحث الى مبدإ الحياة وهذا المبدا لا يزال في خزائن الاسرار . إنا نجهل كيف تبتدىء الحياة في المادة ومتى تبتدىء فيها وكيف ترتقي من الدرجات السفلى الى الدرجات العليا من النباتات الى الحيوانات المحضة ومتى ترتقي اليها ونجهل كيف يحصل الجنين عَلَى النفس البشريـة ومتى يحصل عليها . ذلك من المكتومات عنا . وهل للجنين شعور زهيد كما ظن بعضهم او هل يحصل عَلَى الشعور عند الولادة . لا احد يستطيع ان يتحقق ذلك . والمحقق انه متى خرج من ظلمة الرحم الى ضوء هذا العالم شعر اما بفرح او بحزن . وهذا الشعور ينمو الى ان يصير ادراكاً وارادة ويقوى بالتدريج بتدبير النطق . وقد بذل المجهود حديثاً في مراقبة ادراك الاولاد من اول سني الطفولة الى كمال السن اما لتأييد مذهب دروين واما لاثبات الطبيعة الروحية لكنهم لم يصلوا بذلك الى نتيجة يقينيـة

الى هذه الساعة . فانه دون ذلك موانع كثيرة وانه علاوة عَلَى ذلك لا يسير النمو على نهج واحد فانه يسرع تارة ويبطيء اخرى حتى لا يستطاع الوصول الى الحد المتوسط او المعدل ولا يبلغ الى حدود محققة فالفلسفة العقلية لم تستطع تعيين النتيجة التي يوصل اليها في هذا البحث لكن ذلك لا يقدح في مبادئها المحققة لان العلوم الطبيعية عجزت عن ذلك كما عجزت الفلسفة العقلية

كنتُ قد قلتُ لك في احدى رسائلي من اين نشأ المذهب المادي المشهور اليوم . وانه نتج عن جهل النتائج الاخيرة التي يتوصل اليها بالعلوم الطبيعية وعن التوسع في البحث عَلَى ما ينافي النطق السليم ومن جهة اخرى عن انزال اليقينيات منزلة العلوم الطبيعية وهذا زيغ عن موضوع الفلسفة الصحيحة وطريقها ومقصدها . وقد زدت عَلَى ذلك انه يطلب لدفع المذهب المادي امران

الاول التميز بين نتائج العلوم الطبيعية المحققة والنتائج المفروضة او المسلم بها لفرض مبادئها دون اثباتها فنعرف بذلك هل يصدق ان فينا مبدأً روحياً او لا

والثاني البرهان عَلَى ان تلك الفلسفة الحديثة جارية عَلَى طريق ملتوية ومبنية عَلَى اراء ناقصة او لا اساس لها . اما الاول فارى ان لا حاجة ان ازيد فيه شيئاً الى ما ابنته لك من اول البحث الى الان وقد علمت في ما مر ان غاية ما يوصل اليه العلم المادي ايضاح النواميس

المادية والحدود المادية والادوات المادية التي يستخدمها العقل على احسن سبيل · ولكن العلم المادي لا يوضح شيئاً من الاعمال العقلية ولا العمل الذي يكون على اثر تاثيرات المشاعر وهو الحس لانه لا يعرف به ما الحس ولا كيف يتحول التاثير حساً ولا كيف ينشأ الاستيعاب · وهذه كلها يشهد بها الوجدان الذي هو ركن الاصول في علم النفس وقد علمت ايضاً ان وحدة النفس لا ينفيها العلم المادي وبرهنت لك امكان التوفيق بين اختيار النفس والاضطرار الطبيعي · ورأينا اخيراً ان الفسيولوجيا لا تاتينا بشيء محقق في مبدإ حياة النبات والحيوان · فليس للفسيولوجيا ان توجب على البسيخولوجيا بيان حقيقة العلاقة بين النفس والجسد ما دامت المسئلة مسئلة مبدإ الحياة لا تزال غير معلومة

وعلى هذا اقول ماذا يمكن ان تكون الفلسفة المنحصرة في المحسوسات وتعاقب حوادثها الاضطرارية واعتبار الانسان فيها مجرد بنية مادية ونفي كل ما ليس بهيولي والبحث عن الاسباب الاولى واقصى الغايات اي النواميس النطقية واعتبار غير المحدود الذي اتينا منه ونحيا به مجهولاً لا يدرك ابداً · ان الفلسفة الطبيعية اليقينية يمكن ان تكون علماً باصول على كثير من الاصابة او قليل منها ولكنها لا يمكن ان تكون فلسفة عقلية حقيقية · ان الفلسفة العقلية ليست ناتجة عن العلم الطبيعي فتكون تابعة له لكنها تتقدم عليه لانها تبحث عن الادراك الذي به ومنه كل علم · وهي تحدد كل علم بموضوعه واسلوبه · ولو كانت

الفلسفة العقلية كما يراها علماء الطبيعيات لم تكن علماً مستقلاً باصول ثابتة واسلوب محقق ونتائج يقينية · ولكانت تتغير على توالي الاوقات بتغير العلوم الطبيعية ولم يؤمل ان تستقر على اساس راسخ في كل عصور المستقبل

هذه ايها العزيز الجانيوس آخر نتائج بحثنا في النفس وحال العلم اليوم لا تمكنني ان افيدك اكثر مما افدتك على انه كاف لايقافك على طبيعة الروح وان تعلم ان الانسان ليس كله بمادة وانه ليس بقرد ولا صنو القرد وان بين الانسان والبهيمة بوناً بعيداً وفراغاً لا يمكن ان يشغل ·

نعم ان للانسان بنية خاضعة لنواميس سائر الكائنات العضوية لكن في تلك البنية نفساً غير هيولية متحدة به وهي واحدة وجوهر لا عرض وجوهرها موافق لمقاصدها وغاياتها · وهي حرة مختارة ناطقة تدرك ذاتها وغيرها من الكائنات · وابتغيت ان ابين لك حقيقة الادراك وكيف ينشأ والمبادىء الادبية والغاية من وجود الانسان بمقتضى ذلك كله · وهل تنحصر هذه الامور في الحياة الدنيا او ستتم في حياة اخرى

وسترى بيان هذه المسائل في نهاية المسير في سبيل البحث وسأبينها لك ان شاء الله بطريقة الملاحظة النطقية عينها لانها اسلوب كل علم لكن يجب قبل هذا ان اجيبك على الثانية من مسألتيك الاصليتين

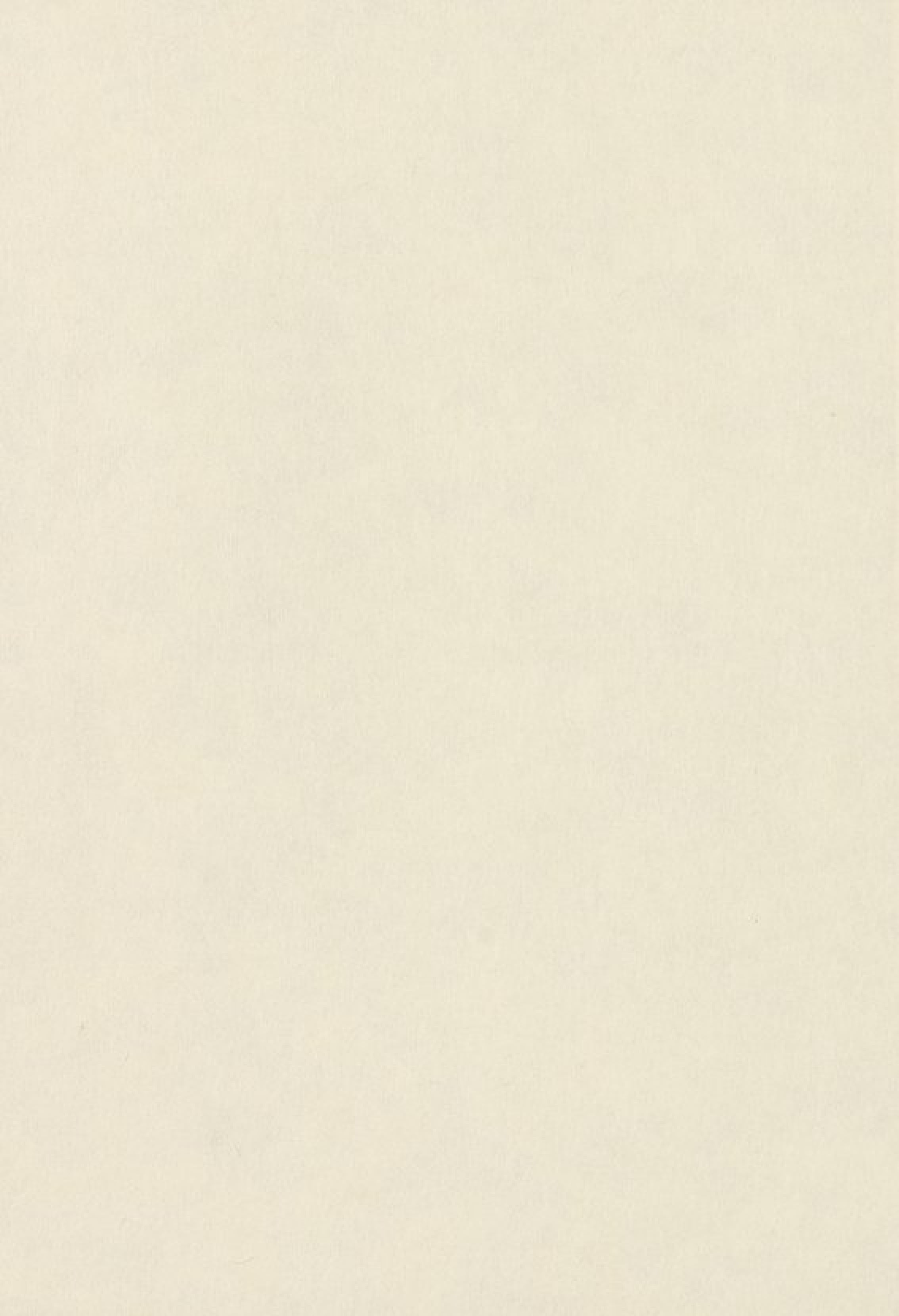
وهي اثبات وجود الله وسنأتي عليها في مجموع رسائلنا الآتية وبالله التوفيق .



اصلاح غلط

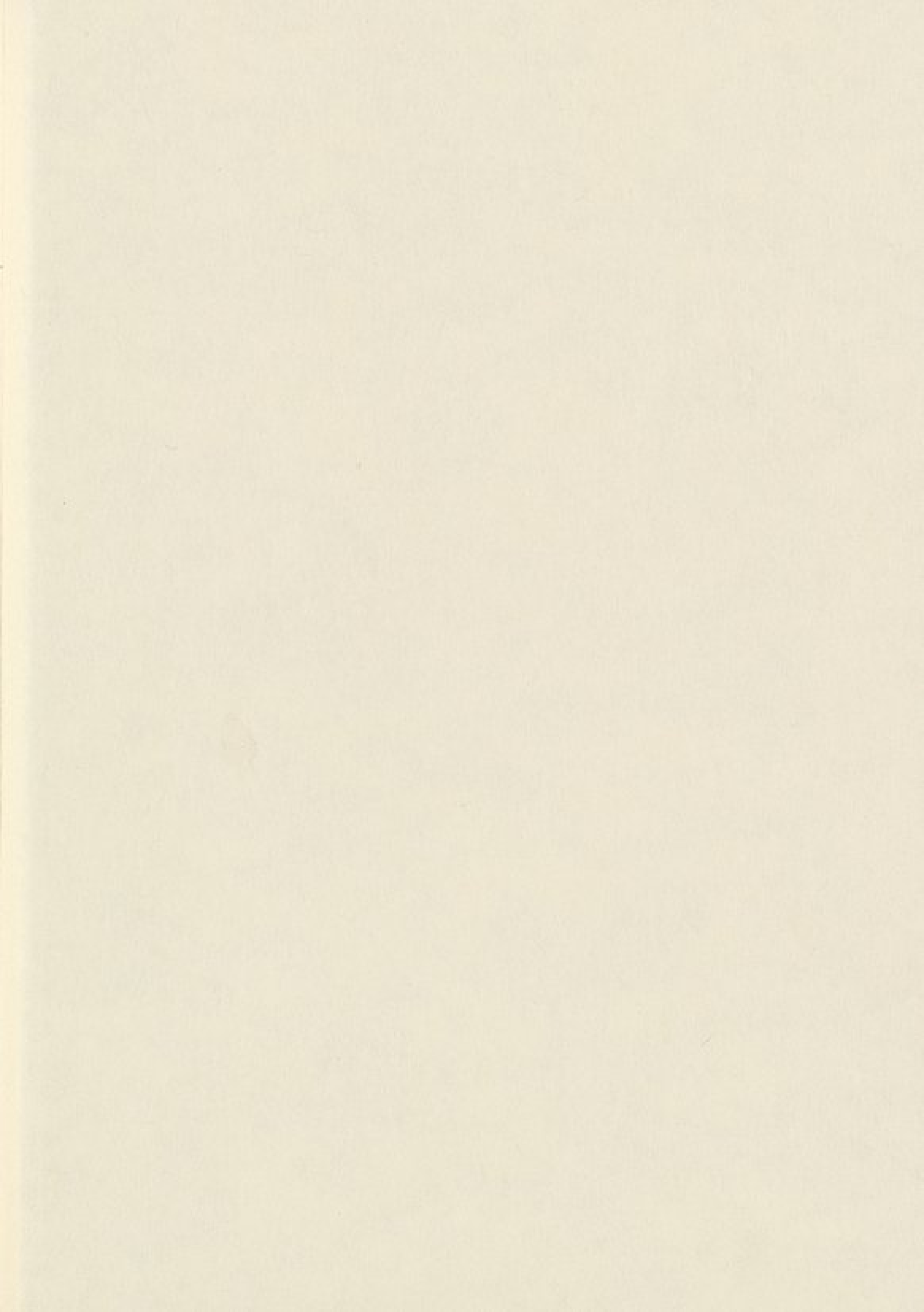
صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢	١١	مبداء	مبدأ
١٣	٠٣	لاثمرة العلم	لا العلم
١٧	٠٢	اليقينية على الحكم	اليقينية وانه هل تنطبق تلك النتائج على الحكم
٢٦	٠٢	حقيقة	حقيقية
٢٦	١٦	شين	غير
٢٧	١٢	حقيقة	حقيقية
٣٧	١٠	او الاساسات	الاساسية
٤٤	٠٤	والارادة على	والارادة والحكم على
٥٤	١٥	السبق	السابق
٥٦	١١	بينهما	بينهما
٥٨	٠٣	آن اختم	آن ان اختم
٦٦	٠٨	زمانة	زمانه
٦٦	١٩	الطبيعة	الطبيعية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٦	١٦	المسئلة التي	المسئلة الاولى التي
٦٩	١٢	كشفت	كشفت
٨١	٠٤	بعضهم	بعضهم اذ لا علامات في اعمال البهائم عليه بمشاهدتها المتشابهات او المتماثلات
٨٤	٠٥	الايات	الاديات
٨٦	١٣	تحليل التي	تحليل الصفة التي
١٠٢	٠٤	وتتناقص	وتتناقص
١٠٢	١٦	الكائن	ألكائن
١٠٤	٠٧	وان شيئاً	وان فيه شيئاً
١١٠	١١	خادم لها	خادم لهما
١١٢	٠٩	واول هذه قوتا	واول هذه القوي قوتا
١٢١	٠٨	نتج عن	نتج من جهة عن










VETUS & NOVUM
TESTAMENTUM
DEI·SUB·NUMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
July—Aug. 1987
We're Quality Bound


Princeton University Library
32101 065691113